مذكرات مجتهد شيعي
الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين

وُلدت في مشهد الكاظمين عليهما السلام مستهل جمادى الثانية سنة ألف ومائتين وتسعين أثناء رحلة والدي لطلب العلم وحين رجع أعلى الله مقامه إلى جبل عامل واستوطن قرية (شحرور) وهي من أعمال صور كنت في الثامنة من عمري محبورا بحضانة والديّ المبرورين كما تحدبا عليّ بالتغذية فطبعاني والحمد لله على غرار الدين القويم وضرباني على قالب منهجه المستقيم.

لا عذب الله أمـي إنها شربت حب الوصي وغذتنيه في اللبن

أخذت عنهما أصول الدين وعقائده القيمة وطبعاني وأنا طفل على إقامة الصلاة بشروط صحتها فجرى ذلك مني مجرى الروح في الجسد ورسخ في نفسي رسوخ الجبال الراسية، وتلك نعمة لا يؤدي حقها ولا يستوفي شكرها، والفضل لله تعالى إذ خلقني من والدين مخلصين له الدين راعيين إليه بالحكمة والاساليب المالوفة بعيدي الغور حصيفي العقدة[١] وله النعمة والآلاء بما بذلاه لي من النصح وتحرياه من الرشد فلم يطويا عني نصحا ولم يدخرا في دلالتي على الله تعالى وكتابه ورسوله وأولاياته واليوم الآخر وهو القادر على جزائهما بالإحسان إحسانا وبالسيئات عفوا وغفرانا.

قرأت القرآن الكريم على كتاب من الصالحين في النجف الأشرف، وجودته في(شحرور) على عمي المبرور السيد محمود شرف الدين وكان من الحفاظ والقراء والبررة الأتقياء رحلة في علم التجويد، ثم أقبل المقدس والدي على تعليمي بنفسه واسترسل إلى تلقيني الدروس بأنسه فألقيت إليه سمعي، وأصغيت إليه بلبي، حتى أخذت عنه العلوم العربية: الصرف، والنحو المعاني والبيان والبديع والأدب العربي وعلم المنطق بكل ضبط واتقان، وأخذت عنه (نجاة العباد)[٢] للعمل في التكليف الشرعي على مقتضاها وقرأت عليه كتابي (فقه الإمامية) و(شرائع الإسلام)[٣] وكان يأمرني بكتابة دروسي وعرضها عليه، فما فاتني كتابة شيء مما قرأته عليه من الدروس العربية والمنطقية إلا القليل والحمد لله.

---

(١) حصيف العقدة أي محكم العقل.

(٢) إذا كانت مع حواشيها يومئذ مرجع المقلدين.

(٣) هما كتابان في فروع الدين على مذهب أهل البيت في جميع أبواب الفقه.

عبد الحسين شرف الدين - تخطيط: فتى الكوفة

وحين قرأت عليه كتب النحو كان يفرض عليَّ قراءة العبارة على العربية ثم إعرابها ثم تفسيرها قبل الدرس في كل يوم وكنت أحفظ في كل يوم بيتين من ديوان الحماسة أو غيره من شعر العرب فأتلوهما وأفسرهما بين يديه بعد مراجعة القاموس في حل الغريب من مفرداتهما ولم يجعل لي مندوحة عن ذلك أبدا، وألزمني بحفظ ألفية ابن مالك حين قرأت عليه شرحها لابن الناظم.

وكان في شهر رمضان يلزمني بمتابعته في قراءة القرآن الكريم (وكان من القُرَّاء) وهناك أجزل الفوائد وأرجى المنافع بخشوع الأبصار وسكون الجوارح خشية وفرقاً.

ما رأيت كوالدي أبا رحيما حكيما يعني بأمره ولده ويهتم بشأنه فلا يني في شيء من مبالغات نجحه أبدا، وما رأيت مثله أستاذاً يغدو على التدريس بسعة ذرعه ويروح على البحث مع تلميذه بشهامة طبعه، -إذا تكلم- أذنا صاغية ويتلقاه -وإن أخطأ- بوجه متهلل وصدر منشرح فكنا في كل ما نسمعه منه أو نرفعه إليه على جمام من أنفسنا، ونشاط من عزائمنا وكان يرهف طباعنا بتشجيعه ويجلو عنا صدأ الفتور بما يذلله من العقاب ويروضه من الصعاب.

يخوض بنا عباب العلوم، ويغرينا بالغوص على أسرارها، وينضي بنار كائب الطلب في جمع أشتاتها، ويحملنا في ذلك على كل صعب وذلول، فيضطرنا إلى تمحيص حقائقها والتنقيب عن دقائقها، وكان في سلخ كل شهر يبلو ما عندنا فيختبر كنهه، ويسبر غوره، فإذا وجد نقصا أكمله أو ضعفا تداركه يرهف بهذا طباعنا، ويستأنف به نشاطنا: وحين لمعت مني بوارق النجح، وبدت تباشير الصبح، أجمع على إرسالي حاضنا لأخي الشريف إلى جامعات الدين في المشاهد المقدسة بالعراق، وكان أعلى الله مقامه ذا زماع في الأمور ماضي العزيمة فيها، إذا قال فعل متوكلا على الله تعالى.

فحمدت الله جَلَّت آلاؤه على أن بلغني ما في نفسي ووصل يدي بما كنت أتمناه وكم أردت ذلك منه فكان أعلى الله مقامه يرجئه من حين إلى آخر فاستعطفته بأبيات من الشعر.

فما قرأها حتى عزم على إنجاز المهمة، ومقدمة لها أهلني بكريمة صنوه الأكبر: عمي المبرور السيد محمود (أم أفلاذي الكبار) كانت من خيرة الفاطميات في كل امرء يعلو به شأن الخفرات من حيث الدين ومن حيث الدنيا ومن كل جهة، وقد ختم الله حياتها عن نحو السبعين من عمرها في حرم جدها أمير المؤمنين عائذة به منقطعة إلى عبادة ربها عن كل شيء فطيب الله رمسها في مثواه الأقدس مثوى الرحمة ومعقل الهدى والعصمة مساء السبت سلخ جمادى الأولى سنة ألف وثلاثمائة وتسع وخمسين.

رحلتي العلمية:

إن لوالدي في رحلتي إلى معاهد العلم والدين نعمة تجدد قديم نعمائه، وتضاعف سوالف إيلائه أرهف لها همه وقصر عليها عزائمه، وأرصد لها ما يضمن لنا الراحة في التفرغ للعلم حتى نعود إليها بما ناطه بنا من الثقة، وعلقه علينا من الأمل، وهذا ما اضطرني وأخي إلى إرهاف العزم،

وإنفاذ الهمة وبسط العنان في إيقاظ الجنان، فلم نأل جهدا ولم ندخر وسعا، وكان قد شرط علينا ذلك قبل زم الركائب، وأمرنا عند الوداع، بتقوى الله عز وجل والإخلاص له تبارك وتعالى في العلم والعمل، وعلى هذا فارقناه، وزمت عنه ركائبنا يوم التاسع من ربيع الأول سنة ١٣١٠.

كنت في هذه الرحلة الميمونة بخدمة المقدسة والدتي (وكنت وحيدها فلن تستطيع عني صبراً) محبورا بحضانة أخي الشريف وله يومئذ اثنا عشر عاما، ومعي كريمة عمي البرة تحضن بكرنا طفلة مفطومة ومعنا وصيفة لنا كانت صالحة ناصحة سعيدة كأسمها رحمها الله تعرف وجوه الخدمة، فكنا ولله الحمد في الطريق كله في أنعم بال وأحسن حال، حتى وردنا المشهد الكاظمي أعزه الله تعالى وإنه لأول أرض مس جسمي ترابها.

فألقينا بفناء الرأفة والحنان، وموضع الحكمة والإيمان، فناء آية الله البالغة ونعمته السابغة جدي لأمي السيد محمد هادي فآوانا -أعلى الله مقامه- إلى ظلال رحمته، وأوسع لنا أكناف نعمته، وحنت تلك الطاهرة زوجته جدتي الجليلة علينا حنو المرضعات على الفطيم.

وتحركت حوبتها[1] على كريمتها والدتي وكانت بكرها، وقد منيت بفراقها ثلاثة عشرة سنة تجرعنا فيها الغصص، أما العلويات شقيقاتها الاربع فقد عطفتهن أواصر الأخوة، وأخذتهن سورة الفرح فبكين سرورا وأبكيننا حبورا، وكان خالي المبرور العلامة السيد محمد حسين -أعلى الله مقامه يبكي متمثلا:

هجم السرور علي حتى أنه ... من فرط ما قد سرني أبكاني

في سامراء:

لما تشرفنا بأعتاب الكاظمين عليهما السلام كان خالي الإمام أبو محمد وابن عمه الإمام الجليل السيد اسماعيل الصدر في سامرا، مهجرهما العلمي على عهد أستاذهما الإمام العظيم السيد محمد حسن الحسيني الشيرازي، مجدد الشريعة الإسلامية على رأس القرن الرابع عشر الهجري وكانت سامراء في عهده أكبر جامعة إسلامية عرفها التاريخ فآثرها السيدان لنا على النجف الأشرف وما أن صدر الأمر منهما بذلك وأمضاه سيدنا الجد حتى انتجعنا فضلهما ووردنا شرعتهما فأوينا منهما إلى وارف حنان، ونزلنا منهما إلى سوابغ نعمة وإحسان وسامراء يومئذ آهلة بأعلام الهدى، زاهرة بمصابيح الدجى.

أقمنا بين ظهرانيهم سنة واحدة فكانت أجزل أيامنا فائدة وأتمها عائدة وأرجاها منفعة, قرأت فيها شرح اللمعة في الفقه ومباحث الألفاظ من فصول الأصول أما شرح اللمعة فقرأته على شيخنا المقدس الشيخ باقر حيدر[2] وكان من ذوي البسطة في الفقه والأصول إماما في العلوم العربية على غاية من الاعتدال في مفاد الأدلة ومجاري الأصول معدودا في المبرزين.

---

(١) الحوبة: رقة الأم خاصة.

(٢) المتوفي في المحرم الحرام سنة ١٣٣٣ وحمل إلى النجف الأشرف فدفن ثمة.

انطلق(قدس الله سره) بي في اليوم الواحد من شرح اللمعة ما لا يطوى في الأسبوع واندفع يعدو بي حثيث السير في ذلك الكتاب المستطاب على ما كان ملتزما به من إعمال الروية الثاقبة والنظر الدقيق والغور البعيد، راعى في عمله هذا مطابقته لمقتضى الحال، إذ لم يرني -والحمد لله- بمحتاج في شرح اللمعة إلى أستاذ فكان يغذ بي السير فيها، وربما حضني فقال:

لا تؤن فرصتك[١] ولا تكن عوقا[٢] فما عتم أن ختم الكتاب والحمد لله على الهداية إلى الصواب.

وأما درس الفصول فقرأته على شيخنا المقدس الشيخ حسن الكربلائي[٣] وكان من أعلام الفقه وأطواد الأصول وأبطال البحث والتنقيب ربيط الجأش فيهما مشيع القلب في الجدال والمناظرة صادق البأس في معترك الآراء قد ملك فصل الخطاب ومفصل الصواب.

عني بي(قدس الله سره) فتعمق في درسي يتقصى في التحقيق والتدقيق كيف تمحص الحقائق، وكيف تستجلى الغوامض وكان يغريني بمناقشته ويحدوني على نقض ما يبرمه وإبرام ما ينقضه ويرهف عزمي لمناظرة العلماء والأفاضل ويشحذ رأي لدفع الحجج المزيفة وقرعها بالحق ويحملني على الإمعان والاستقصاء في البحث مع أترابي مع من هو أفضل مني ومع من هو دوني.

وكنت صبح الجمعة من كل أسبوع أغذو بخدمة سيدنا الخال الإمام أبي محمد الحسن أعلى الله مقامه إلى مجلس مولانا القدوة الشيخ ملا فتح علي السلطان أبادي، وكان أعلام الدين كالسيد اسماعيل الصدر والشيخ محمد تقي الشيرازي والميرزا حسين النوري والسيد محمد الأصفهاني وأمثالهم ينتدبون يوم الجمعة مجلسه لينتجعوا حكمته ويردوا شرعته، وكان ممن ترمقه أبصار الصديقين وتمد إليه أعناق المقدسين (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض) رقيباً على نفسه في كل حركة وسكون يحاسبها على كل منهما زاهدا في الدنيا راغبا فيما عند الله، ضعيفا في بدنه قويا في ذات الله كأن أمير المؤمنين عليه السلام إنما عناده إذا وصف بعض إخوانه فقال: كان لي أخ في الله يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه إلخ.. فإذا أفاض في الحكمة تفجرت ينابيعها على لسانها فملك أعنة القلوب ورد شوارد الأهواء وقاد حرون الشهوات، وقوّم زيغ النفوس فخفقت الأفئدة وخشعت الجوارح خشية.

وكان لغدوي إلى خدمته واستماعي لحكمته أثر هو أرجى ما أرجوه.

وكان لي في سامراء رفيق في درس الفصول هو السيد الشريف مهدي بن الشريف الإمام السيد محمد بحر العلوم الحسني الطبطبائي النجفي، كان هاشمي النفس فاطمي الحسب، علوي الأعراق، أحمدي الأخلاق، غزير المادة، سديد المناهج، سمح القريحة، رائق المنطق، فائقا في

---

(١) أي لا تؤخرها مأخوذة من آناء إيناء إذا أخره وأبطأه.

(٢) العوق هو الذي يعتاقه التسويف عن مهمته.

(٣) المتوفي سنة ١٣٢٠ في الكاظمية وكان هو والإمام الميرزا حسين النائيني كفرسي رهان كأنهما فرقدان قد اشتقا من نبع واحدة غير أن الحسن كان أوسع صدرا من الحسين وأربط في المناظرات والمحاضرات جأشا.

الدقة والاعتدال وسرعة الانتقال.

كنا كلما قرأنا فصلا من كتاب الفصول نراجع قانونه من كتاب القوانين، حتى فرغنا من مباحث الألفاظ على هذه الكيفية، وسبرنا في الإثناء شرح التلخيص (المطول) للتفتزاني، فكنا كما قيل:

متوازرين على العلى متقارب شكلي وشكله

لا يعتريني مشكل إلا وكان لديه حله

وكان(رحمه الله) كما قيل أيضا:

في الأرض جوهر جسمه الفاني وفي الملكوت عقله

توفي طيب الله ثراه في ريعان شبابه سنة ١٣١٤ في الكاظمية وكان الأسف عليه عاما، وقرأ علي في سامراء أخي (الشريف) أبو نور الدين فأخذ عني دروس النحو والصرف في شرح ألفية ابن مالك فمحّص حقائقها ووقف على أغراض الناظم وابنه بدر الدين الشارح، وكان في عاملة قرأ علي شرح القطر لابن هشام.

خروجنا من سامراء

بينا نحن مقبلون على التحصيل أشد إقبال نمضي إليه أنشط ما نكون ونعود منه أنشط مما كنا، نبذل الجهد فيه عناية واهتماما ونستفرغ الوسع في أن نلتهمه التهاما، بينا نحن في هذا المضاء والعزيمة، إذا بوادر الفتنة السامرية تهب عنيفة وإذا سحبها تنتشر سوداء منذرة بالعاصفة، وإذا بشذاذ العشائر في سامراء يتألبون على إمام الأمة في دنيا الحنيفية السمحاء وشيخ الإسلام الشريف الحسيني الشيرازي رفع الله درجته وإذا بهم يتسورون على حرمه المنيع أوباشاً طغاما، في غير وسيلة من وسائل عليائه ولا سبب من أسباب العروج إلى سمائه وإنما هي نزوة السفه وأماني الغرور دفعتهم إلى اعتراض سبيله فكانوا كما تكون الرذيلة في مقابل الفضيلة أو كما تكون الحصى في مجاري السيول المنحدرة، وكانت فتنة نقماء أو جبت خروجنا من سامراء.

وقد أقامت تلك الفتنة، وأقعدت العراق وإيران والعالم الإسلامي ثم تطورت فخلقت في السياسة جَوّاً هش الآمال في ناحية عابس الرجاء في أخرى، وذلك أن صدى الفتنة تجاوب في آفاق العراق وإيران وجلجل في العالم الإسلامي الإمامي غضباً جامحاً على وجه آثار نهم الطامعين في العراق من دول الاستعمار وأخاف المستولين عليه العثمانيين يومئذ.

فلم يكن من الغريب أن تبعث تلك الفتنة في بريطانية أملا يرجى، وليس غريبا أن تكون في سياسة العثمانيين صدمة تخشى، فإن لذلك الإمام الشريف موضعا من الزعامة مرجو الرضا مخشي الغضب.

ومن هنا أسرع سفير بريطانيا إلى سامراء يطرق ابواب الشريف الإمام بكل خشوع حاملا إليه من دولته رسالة التطوع لأوامره على أي وجه يشاء.

يشاء غور الإمام الشيرازي البعيد وفكره الثاقب، ورأيه السديد، كل ذلك وقف على كنه الرسالة وسرها، وانتهى به إلى ما يجب من الحيطة على الإسلام والإخلاص للأمة الذود عن حياضها والاحتفاظ بثغورها، فرد(أعلى الله مقامه) سفير بريطانية رد الأبي الحمي الغني، وأنكر أن يكون قد وقع شيء من عشائر سامراء ينافي الكرامة، وإنما هو جموح الولد المدلل على والده العطوف، فسرعان ما يروض، وعجلان ما يتمكن هو كأب قوي يروض، أبناءه على ما يريده ويأخذهم بما يجب.

وقد كان الأمر الذي أطمع بريطانية هو الذي أقلع السلطان عبد الحميد فاصدر أوامره لعامله ببغداد أن ينزل على أمر السيد الإمام وأن يوكل أمر تأمين سامراء وتأديب أولئك المعتدين الأشقياء إلى السفير الإيراني (صدر السلطنة) وأن يوسع له الصلاحية بكل عقوبة ينزلهم بهم أو قصاص يأخذهم به، وكان هذا هو الحل في إرجاع الأمن والراحة في الحياة القلقة في الأوساط الشعبية كلها فكانت أحكام وكانت عقوبات تناسب إجرام أولئك المجرمين من ضرب وتنكيل وحبس وإجلاء.

لكن حكمة ذلك الإمام الحكيم وعلمه بما يجب للحياة أوضحا له الطريق في إصلاح الوضع ومعالجة الداء، وكان(أعلى الله مقامه) أمضى في سياسة تلك الظروف وأقضى بها سفير إيران ووالي بغداد (حسن باشا) وليس أدل على هذا من عدول له عن إمضاء ما حكمت به السلطة وارتفاعه عن إقرار إقصائهم فأطلق المعتقلين وأرجع المنفيين إلا نفرا لا يبلغون العشرة كانوا جراثيم تلك الفتنة وحاملي أتباعهم عليها، لذلك أرجأ العفو عنهم حتى فاؤوا إلى الرشد وأحرز منهم صدق التوبة.

وفي أثناء هذه الفتنة عند استفحالها خرجنا من سامراء بقصد النجف الأشرف، ولم يكن بد من المرور بالكاظمية تشرفا بأعتاب الإمامين الكاظمين الجوادين عليهما السلام، وتزودا من عطف سيدنا الجد السيد هادي وبركاته وتفيئا بوارف ظلاله واثلاجه للغلة بزيارة السادة من آله فكم كنا بخدمته في حلقة من أولاده وأحفاده وأسباطه نستقي من بحر فراته ما نشاء من علم ودين وأدب وأخلاق وطهارة فيروينا من كل ذلك بكأسه الأوفى، ويفيض علينا ما يشاء من حكمة المربي وتربية الحكيم.

في النجف الأشرف

وخففنا إلى النجف الأشرف متوكلين على الله عز وجل فأنخنا حاجاتنا كلها بفناء الوصي وباب مدينة علم النبي، إذ لا مذهب للآمال عن ذلك الباب، ولا مراد[1] للنجح عن تلك الرحاب، ووجدت أستاذي الشيخ باقر حيدر قد سبقني فانتجعته بدرس الفقه ووردت شرعة السيد محمد صادق الأصفهاني في درس الأصول، فطفق الباقر يسير بي في مكاسب الشيخ الأنصاري (أعلى

(١) مراد: اسم مكان من راد الأرض برودها إذا طاف ليختار مكانا لها لنزوله.

الله مقامه) سيرته الأولى معي في شرح اللمعة، غوصاً على الحقائق وكشفا عن الغواصين شأن أولي الروية الثاقبة والغور البعيد من محققي العلماء، وكان يستفزني إلى إعمال النظر في معضلات المسائل حيث تختلف أنظار العلماء، ويدفعني إلى مناقشته ومعارضة حجته.

يتقلب معي بين أحناء الحق طويل النفس في ذلك، وكان يسعفني بما ينصفني، هذا كله مع اندفاعاته بالسير الحثيث بي في الكتاب المستطاب حتى أتينا عليه إلا يسيرا من أبوابه وقفت فيها على الفقيه العلامة الشيخ علي باقر[١] وكنت قبل قرأت عليه العبادات من كتاب الرياض فأمكنني من بغيتي إيغالا في التنقيب وإمعانا في التدقيق، جزاه الله عني خير جزاء المحسنين.

وما أسبغ نعم الله علي إذ هداني في أخذ فرائد الأصول إلى السيد محمد صادق إذ كان من المعروفين في سبر غروها وكشف سرها، وكان ممن جمع أشتات العلوم والفنون أصولها وفروعها وقام في تدريسها على ساق معتدلة الطريقة حسن الأسلوب إلى الغاية تدور على لسانه مطالب المحققين من أعلام المتقدمين والمتأخرين ولاسيما الشيخ مرتضى الأنصاري ومن جاء بعده من أولي الأنظار الثاقبة وله بين دلائهم دلو قد ملأوة إلى عقب الكرب.

أغرق بي في البحث عن كنوز (الفرائد) يصوب نظره ويصعده في أثنائها وأحنائها فيقلبها لي ظهرا لبطن مهيبا بي إلى سبر غورها واختبار كنهها، وكان يربع حجري[٢] في غوامضها ويبلو ما عندي في أسرارها فيعود قرير العين مغتبطا محبورا بعواقب جهوده في تخريجي وآثار ما أرهفه من عزائمه في تدريسي والحمد لله.

وما إن انتهينا إلى منتهى الكتاب حتى انضويت معه إلى منبر أستاذه آية الله الشيخ محمد كاظم الخرساني[٣] وكان أعلى الله مقامه شارعا في تأليف الكفاية فكان كلما دَوَّنَ درساً منها ألقا على منبره الشريف وحوزته يومئذ تربوا على الثلاثمائة من أهل الفضل والتحقيق وكان السيد محمد صادق من المبرزين فيها[٤].

أما الإمام الخرساني فإني لم أجد أدق منه نظرا ولا أعدل فهماً ولا أحضر ذهناً ولا ألحن منه بحجة يثبت رأيه بالبينات القاطعة والحجج الملزمة مستظهرا بدليل العقل والنقل (وقد سار بأبطال العلم في عصره سيرا سجحا[٥] لا يكلم حشاشه[٦] ولا يتعتع راكبه[٧] فأوردهم مناهل من

---

(١) هو الشيخ علي بن الشيخ باقر ابن صاحب الجواهر توفي أعلى الله مقامه في النجف سنة ١٣٤١ وكان من أعلامها.

(٢) يقال ربع الحجر إذا رفعه بيده ليختبر قوته.

(٣) المتوفي في النجف الأشرف صبح الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة ١٣٢٩ وأمره في العلوم العقلية والنقلية غني عن البيان.

(٤) كان نظير حجة الإسلام السيد أبو الحسن الأصفهاني وربما كان مقدما عليه تركته في النجف الأشرف يدرس في مدرسة القوام وله حوزة تقدمه وتؤهله للزعامة العظمى.

(٥) هذه الكلمات الموضوعة بين هلالين مأخوذة من خطبة لسيدة النساء وصفت بها سيدة الأوصياء صلوات الله عليهما رأيتها تنطبق على أستاذنا الإمام الخرساني فأوردتها مع تغير ما عما قالته عليها السلام.

(٦) الحشاش عود في أنف البعير يشد به الزمام المعنى إن هذا العود لا يجرح أنف البعير.

(٧) أي لا يصيبه أذى.

العلوم العقلية والنقلية روية فضفاضة[١] تطفح ضفتها ولا تترنق جوانبها فيصدرهم بطانا[٢] وينصح لهم سراً وإعلاناً، وقد انتشروا في الأرض انتشار الكواكب في السماء:

علماء أئمة حكماء يهتدي النجم باتباع هداها

ما فاتتني محاضراته أصولاً وفقها منذ انضويت إليه حتى أتيت عاملة، وكنت فيما أستشكل به من مطالبه أرجع إلى أستاذي السيد محمد صادق[٣] فيوقفني على أغراضه، وربما راجعت الإمام الخرساني في نفسه فيلمسني مفصل الصواب وفصل الخطاب.

وعكفت في الفقه أيضا على علميه اللذين ينحدر عنهما السيل ولا يرقى إليهما الطير الشيخ محمد طه نجف[٤] والشيخ آغا رضا الهمداني[٥].

وكان الإمام الرضا هذا يومئذ يؤلف سفره الجليل (مصباح الفقيه) وهو أعدل المؤلفات في موضوعه وأفضلها دقة وحسن أسلوب فكان ما يكتبه في الليل يلقيه علينا صبحاً وكانت حوزته كلها من خاصة الفحول في علمي الفقه والاصول كأستاذي الشيخ باقر حيدر والشيخ علي باقر وطبقتهما فكان يحتدم الجدل فيها بحثاً عن الحقائق لذلك كان درسه من أنفع الدروس للمتوسطين وللمنتهين من الفقهاء والأصوليين وكنت في جيرته وجيرة مسجده الذي كان يقيم فيه الفرائض الخمس في جماعة المقدسين من العلماء العاملين والأبرار من عامة المؤمنين.

فكان لي الفوز والتوفيق بالإتمام به في أكثر الفرائض، وكان يعطف عليَّ لسابقة بينه وبين المقدس والدي إذ كان الوالد من تلامذته ومتخرجي حوزته، فكنت بهذه الدالة أجرأ عليه في معضلات المسائل ومشكلات الدلائل فيعيرني أذنا واعية وصدرا رحبا ولطفا في الجواب وطول نفس معي في البحث، وكنت مع ذلك كثير البحث مع أستاذي الشيخ علي باقر عما لا أصل إليه من غوامض مطالبه، وكان الشيخ علي بحاثة قليل النظير في فضلاء العرب دقة واعتدال سليقة.

أما شيخنا الشيخ محمد طه فقد كان ممن تشد إليه الرحال وتضرب إليه أكباد الإبل وممن عندهم مفصل الصواب وفصل الخطاب، وكان في فقه أهل البيت موسوعة جامعة وعليما محيطاً تدور الأحكام الشرعية الفرعية بأدلتها التفصيلية على لسانه، فالفقه بجميع أبوابه في يده، ولعله يمتاز بهذه الخصيصة عن غيره.

أوينا منه إلى إمام مبين وابتغينا حاجاتنا إذ عكفنا عليه من مبتغاها والحمد لله على التوفيق، ووفقت في الفقه أيضا على شيخنا الشيخ فتح الله[٦] ابن الشيخ محمد جواد ويكنى (شريعة

(١) أي يفيض منه الماء.

(٢) أي ممتلئين ما بهم إلى الأكل من حاجة وهذا كناية عن امتلائهم علما وحكمة.

(٣) وكنت أرجع إلى السيد أيضا فيما استشكل فيه من دروسي التي ألقيتها على تلامذ فقها وأوصلا وكنت موفقا في ذلك والحمد لله.

(٤) المتوفي في النجف الأشرف ثالث عشر شوال سنة ١٣٢٣ وكان مرجع العرب في العراق وسائر الآفاق على غاية من الزهد والورع والفضيلة.

(٥) المتوفي في سامراء سنة ١٣٢٢.

(٦) المتوفي في النجف الأشرف سنة ١٣٣٩ عن ثلاث وسبعين من عمره الشريف.

مدار) ويدعى شيخ الشريعة الأصفهاني، كان(أعلى الله مقامه) من أعلام الفقه والأصول فسيح الخطوة في المعقول والمنقول غزير المادة فيما يؤثر عن أهل بيت العصمة واسع الرواية في ذلك طويل الباع في أخبار الماضين وحوادث السنين، عذب المنطق أنيق اللهجة حسن الترسل متصرفاً في ضروب الكلام بكل من فمه وقلمه لطيف الكنايات بعيد الاستعارات حلو المجاز حسن الخط سريع الخاطر حاضر الذهن بديهي الجواب على جانب من الورع والعبادة ركنا من أشد أركان المؤمنين ومنهلاً من أصفى مناهل العلم والدين.

كانت له حوزة تربو على المائتين من كل مرهف للعلم طبعه باذل فيه وسعه وكنت واحدا منهم أعيره أذنا واعية على نشاط من عزمي وارتياح من طبعي، وكانت لي به حظوة خاصة يؤثرني بها غالبا وقد عادت عليّ بنفع جزيل ورجع كثير ولي معه خلوات في بعض الأوقات كانت من أجزل أوقاتي فائدة، وأتمها منفعة وقد اختصني ببعض المسائل المشكلة فكلفني باستنباط حكمها وتمحيص الحق فيها فامتثلت أمره، وحين وقف على ما كتبته في استجلاء غوامضها واستقراء دقائقها تقبله مني بقبول حسن وكان معجباً به إلى الغاية وذلك من عطفه ولطفه قدس الله سره.

ووقفت في الفقه أواخر أيامي ثمة على شيخنا المقدس الشيخ عبد الله المازندراني[1] أيضا وكان أحد الأعلام من شيوخ الإسلام في تلك الأيام بحرا لا يسبر غوره ولا ينال دركه، وكانت حوزته تربو على المائتين من أهل الفضل فيهم الجاد في طلب العلم النافذ الهمة في أن يلتهمه التهاما لموقظ جنانه في البحث عن غوامضه ودقائقه لا يسأم ولا يفتر، وما إن نظمني التوفيق في سلكهم حتى افاضوا علي، سجال عرفهم فغمرني فضلهم بما كان من تشجيعهم أياي بإصغائهم إذا تكلمت وآدابهم معي في المناظرة وإنصافهم إياي فيها معجبين مكبرين إلى الغاية.

وهذا من فضلهم وفضل أستاذهم ومربيهم الإمام المازندراني الذي لا افتأ أذكره فأشكره وكان قد علم(أعلى الله مقامه) أني مشغول في(شرح التبصرة) فأحب أن أرفع إليه ما أخرجته من ذلك وعيّن لي وقتا من كل يوم لأقول فيه بخدمته مع نفر من أفاضل حوزته، فكنت حين أغدو إليه أقرأ شيئا من الشرح بين يديه فيسألني عن دقائقه ويبحث معي في تمحيص حقائقه ينعم نظره فيما أقول فيقلبه بطناً لظهر يعجم بذلك عودي ويسبر به غوري، فكان إذا تكلمت لاحت عليه أريحية السرور وربما غلبت عليه نشوة الطرب قائلا: ما كذبتني والله فيك الظنون، وربما استفزته الأريحية إلى التصريح والنص الجلي، وهكذا كان حتى انقلبت عنه (كما انثنيت عن غيره من أساتذتي) أجمل منقلب والحمد لله.

ووقفت فيما يرجع إلى السنين وأسانيدها من العلوم[2] على شيخنا المقدس الشيخ حسين النوري صاحب مستدرك الوسائل، وكان(أعلى الله مقامه) وجهة الأعلام من حملة السنن النبوية وحفظة الآثار المقدسة قبلة روادها وقدوة الباحثين عن مفادها غير مدافع ولا معارض وكان في

(١) المتوفي في النجف الأشرف سنة ١٣٣٠.

(٢) كعلم الدراية وغيره.

الإيمان بالله عز وجل والثقة به والتوكل عليه والتسليم إليه والرضا بقضائه وقدره والنصح له ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم والورع عن محارمه والاجتهاد في عبادته تعالى في غاية لا ترام وشأو لا يدرك، وكان بحيث لا تحلق آثاره في مكارم الأخلاق ومحامد الصفات وعزة النفس وتأنفها والترفع بها مع التواضع للمؤمنين والعطف على اليتامى والأيامى والفقراء والمساكين لا يجاري في شرفه ولا يباري في علو قدره، وكان من علمي الفقه والأصول ذروة سامية، ذا ملكة قدسية راسخة تبوأ فيها منازل الفقهاء المسلمين.

عرفت منه الإخلاص لوجه الله تعالى في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل فأخذ بمجامع قلبي وملك حبه فكنت أتبع أثره إتباع الفصل أثر أمه وكان يبسط لي أعطافه ويوسع لي أكنافه لم يأل في تربيتي جهداً ولم يدخر عني وسعاً وأجازني إجازة مفصلة[1] فكنت مغتبطاً بحسن ظنه محبوراً بثناه بدعائه حتى قضى نحبه مبرورا مشكورا [2] أعلى الله مقامه وأجزل إكرامه.

لم أزل في النجف الأشرف ضارباً بتوفيق الله تعالى -أطنابي على الاشتغال ملقيا جزاني على أخذ العلوم على أفواه الرجال طاوياً فؤادي في الإفادة والاستفادة على صريمة حذاء قائماً فيما على ساق محاضراً ومناظراً ومدرساً ومؤلفاً لا ألوي على شيء حتى قفلت راجعاً بنجح حاجتي إلى عاملة منقلباً إليها أجمل منقلب، والحمد لله وصل يدي بملتمسي وملأهما مما أملت، وله النعمة والآلاء عدد كلماته التي لا تنقد.

ما عنيت مدة إقامتي في العراق- وكانت اثنتي عشرة سنة تقريبا- بغير ما هاجرت إليه حتى إني لم أتصل بغير أهل العلم ولم أتعرف بأحد سواهم من سائر أهل العراق، بل لم أر من حواضرها وبواديها غير المشاهد الأربعة والكوفة وبغداد وما كان في طريقي إلى هذه البلاد، إذ كنت رائد حاجة ماضي الصريمة فيها وحيث أنها تستفرغ وُسعي وتستغرق أوقاتي لم يكن لي عنها مذهب سنة الشيوخ الأعلام من أقطاب أرحية العلم والعلم في تلك الأيام رضي الله تعالى عنهم ورضوا عنه.

ووقفت على الأئمة الأعلام جدي الشريف أبي (الحسن) الهادي وخالي الشريف محمد الحسن وسيدنا المولى السيد اسماعيل الصدر وهم حامتي وسادتي، حضرت دروسهم الفقهية والأصولية في الكاظمية والحائر وكان لي بهم حظوة خاصة ولي عليهم دالة عزيزة ولهم عليَّ عطف شديد فإذا أنا محافظ بجميل رعايتهم وجليل عنايتهم أينما كنت وأينما كانوا وكنت أراجعهم في المعضلات أستجلي بهم غوامضها وأمحص حقائقها، ولهم في تربيتي والهيمنة علي (فيما أنارهم الله من علم وحلم وحكمة) أساليب حملوني بها على طريقتهم المثلى، فطبعت على غرارهم وضربت على قالبهم واستفدت من جلواتهم وخلواتهم ومن مظان الفراغ من أوقاتهم ما استفدته من سائر دروسي فجزاهم الله عني خير جزاء المحسنين.

---

(١) تاريخها سنة ١٣١٩ مستهل شهر رمضان.

(٢) في النجف الأشرف ليلة الأربعاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٢٠ عن ست وستين من عمره الشريف.

الحياة العلمية أيام دراستي[١]

لقد كان في ذلك العهد وما قبله للعلوم الإسلامية وما إليها من المعارف والفنون سلطان مشيد الأركان رفيع البنيان، وكانت دولة بعيدة الأثر في الحياة العامة، ويرجو بها الناس خير الدنيا والآخرة، ويتوسلون بأسبابها إلى كل فوز وفلاح، فيلوذون إلى ذراها ويعتصمون بعراها ويتولون أولياءها منصرفين إليهم عمن سواهم، غير آبهين في المهمات كلها بمن عداهم مسوقين إلى طاعتهم بدافع من العقيدة وحافز من الثقة والاطمئنان.

فإذا خضعت الأمم للدول السياسية ونجعت لأحكامها خشية البطش وحذر القوة فإن الأمة الإسلامية كانت يومئذ خاشعة لدول العلم والدين نزولاً على حكم الإيمان، إذ أن دولة العلم بالأحكام الإلهية ليست غير دولة الله تعالى سلطانه، تصدع بأحكامه وتشرح قواعده التي عليها المدار في الحياة الدنيا والآخرة.

فمن هنا كانت الدولة العلمية يومئذ بمثابة تعنو لها الجباه، تملأ الصدور هيبة وإجلالا وارفة الظلال مبسوطة الأفناء.

ومن هنا كانت عواصمها مثابة للناس وأمنا، ينفر إليها من كل فرقة طائفة، ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون -يأنونها رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم.

ومن هنا كانت العلوم الدينية وما إليها من المقدمات والمبادئ غاية من أسمى الغايات، يعتز بها الطالب في ذاته ويعتز به أهله وسائر من إليه، وفي ذلك من التشجيع ما يشتد به الإقبال وتشد به الرحال.

وبهذا احتشدت الجامعات العلمية وغصت معاهدها بأمم من الطلاب تختلف أشكالهم ولغاتهم وألوانهم لكن مبادءهم وأغراضهم متحدة في التوفر على تلك الثقافة العالية التي رفعت دنيانا وأخلصت نوايانا فوجدنا على نورها سبل الحياة واضحة مأمونة العثار دهرا ليس بالتقصير.

وأي إرهاف في العالم وحض عليه أعظم من هذه العناية تستأثر بمظاهر الثقة وتستقل بنواحي الرضا وتملك هوى الأمة الإسلامية كلها فيتشوف الناس دائما إلى الحوزة العلمية ويشغلهم دائما حديث زعمائها وطلابها وتسكرهم دائما سلافة فضلها وآدابها فيتواصون بهم متنافسين في ولائهم والانقياد لهم متحاضين على ذلك، فكان أثره في تدافع الطلاب إلى خوض عباب العلم والغوص على أسراره، وكانت له لوازمه من استخراج مخبئات العلوم وتمحيص حقائقها.

وإن من الحق أن نسجل الواقع في هذه المظاهر ونذيع السر في هذه الظواهر فإنا إذا رأينا إقبالاً من طلبة العلم على استساغته والتهامه ورأينا من الناس عليهم بكل ما يمدهم في علومهم ورأينا ظاهرا من التساند بين هاتين الظاهرتين فإنا نرى إلى ذلك سراً أكبر من هذا السر قد

---

(١) لما انتهى بنا الكلام إلى الحياة العلمية رأينا من المناسب أن نلم بها على سبيل الاختصار كما هو الشأن في كل ما يذكر مستطرداً.

ابتنى عليه البعث العلمي وتم به الأمر لهم ألا هو الإخلاص الذي كان يحدو طرفي الإقبال المشترك بين أهل العلم وبيئاتهم المؤمنة فقد كانا متوازرين في سبيل هذه العاقبة المباركة التي أخضبت فيها العلم وأثرى وأصدر من خصبه وثرائه للدنيا الإسلامية من العلماء الأعلام ومن الآثار الخالدة والجهود المباركة ومن الأفكار والابتكار ما لا يدرك شأوه ولا تحلق آثاره.

ولعل هذا الإنتاج الفوار الغزير يصلح شاهداً على الإخلاص فيما يطلبه ذوو العلم وفيما يرهفه فيه الوسط المؤمن فإن هذه البركة في الإنتاج وحسن العاقبة لا تصدر إلا عن الإخلاص وحسن النية ومما يدل على هذا أن وفرة في العلماء الأعلام كهذه الوفرة في طبقة واحدة وفي مرفق واحد من مرافق الحياة تدعو إلى التزاحم على الزعامة والتدافع والخصام إذ ليس من المعقول أن تظفر هذه الكثرة بمركز الزعامة في آن واحد بل لابد من انتخاب فرد من ذلك الجمع الغفير ليقوم بأعبائها فلولا الإخلاص لكانت ثمة معارك يستشري فيها النزاع ويستكلب في معمعانها الصراع كما هو الشأن فيما نشاهده في ميادين الحياة ولكن الوسط الروحي المهيمن على الأبصار والبصائر وعلى الألسنة والأيدي وعلى القلوب والألباب كان يرتفع بذويه عن هذه المهاوي المادية السحيقة ويتعالى بهم عن هذه المآسي الشهوية الموبوءة وليس شيء أدل من هذا على كون الانتخاب طبيعياً يختار من كان أقوى على المصلحة وأنهض بالعبء وأدنى إلى الكفاية الجامعة لشروط الفضل والرر والتقوى وصدق النظر لأن الغرض المهم أن تسير السفينة وأن تحكم الدفة يد صناع ونظر صحيح قمين بمعرفة المصالح الاجتماعية على ضوء الحقائق الدينية، فإذا اختار هذا الانتخاب العادل فرداً من ذلك المجموع الصالح كله للقيادة أذعن الجميع راضين محبورين لا تجد في نفس واحد منهم حسداً ولا حرجاً وإنما تجد اغتباطا وسرورا والتفافا حوله بالتأييد والتسديد ومؤازرته بالرأي والنصح.

ولعلك لا تجد في نفس المختار إقبالا أو رضىً لما صار إليه بل لعلك تجد في نفسه انقباضا أول الأمر إيثاراً للعزلة ولأن يتقدمه أخ من اخوانه يضطلع بالمسؤولية التي يخشاها ويخاف تبعاتها ويشفق ألا يكون قويا في أداء بلاغ مركزها المرجو لحياة أمة تلتمس جمال الحياة في أفواه علمائها وصدورهم وآثارهم.

هذا شاهد لا أصدق منه على أن القوم مؤمنون حقاً يتغلغل الإخلاص في أعماق نفوسهم فيبلغ إلى قراراها فيتجافى بهم عن الشره والاستكلاب ويتناءى عن الشك والارتياب ويعرج بهم سماوات الواقع والصدق والفضيلة فيستشرفون من الزعامة مركز المصلحة لا مصلحة المركز ويستقبلون قيادة الكرسي لا كرسي القيادة.

وهذا هو السر الذي ادعيناه للنهضة العلمية وبنينا عليه تلك الوثبات إلى الخير والصلاح ولا ننكر أن روحية الوسط ساعدت هذا السر مساعدة كبرى وأن مظاهر التشجيع والطاعة والانقياد أسهمت في كل ذلك بحظ غير يسير، فكان من مجموع ذلك ما قلناه من إخضاب التربة وسداد الوثبة ونماء الغرس.

وأنه ليؤسفني أمض الأسف أن يتراءى لي وأنا أدون هذه الذكريات شبح كريه، مهول يقبض على تلك الأحلام الذهبية بكف مخيفة الأظفار خبيثة المخالب ثم يقف بها في مهب الرياح ومختلف العواصف ليلتقي بها في إعصار فيه نار يلتهم زهو أشكالها ويبتلع جهد أبطالها ويشوه رونق جمالها.

واحسرتاه! وهل لنا يدان بإرجاع من نسل من الصفوف العلمية فانسل منها متقهقراً خوفاً من يد هذا الشبح أو طمعاً بما في يده الأخرى من بهارج لا تروي ظمأ ولا تسد جوعه؟

ويضاعف الأسف في نفسي أني شهدت تلك الدولة العتيدة في إبان عظمتها وريعان أيامها تتعالى في بناء شامخ مشيّد يطاول السماء علواً وارتفاعاً، ثم إني أنا أشاهد هذا البناء الرفيع يتضاءل لولا بقية من الماضي ووميض يكشف ما استطاع من تكاثف الظلمات حوله ويجاهد بعزمة من الماضي القريب وإني خشية اتدارس أخبار هذه الحياة الهنيئة رأيت أن ألمح إلى شعاع من قبساتها الوضاءة.

وكانت علينا تفصيل ذلك لولا أنه يخرجنا عن موضوع الكتاب، وعسى أن نوفق إلى هذا في كتاب نفرده لتلك الحياة السعيدة باجتماع القلوب وترادف الأفئدة واتحاد العزائم نفصل فيه الثروة الطائلة في تلك الأيام بتفصيل القول في علمائها كأنهم الكواكب في السماء وقد طبقوها نوراً وهدىً لقوم يؤمنون.

وإنا لنذكر ذلك والأسى يحز في نفوسنا حزا والحسرة تمض بنا فتقض المضجع وتقلق الوسادة وما يجدي البكاء طائلة في أمر فات، وكلنا نرجو من الله أن يعوض على الأمة بمن بقي من أعلامها ما قد خسرته ويعيد لها من تلك الحياة ذلك الانسجام الجزل المحبوك الذي أخرجنا الألم له عما نحن في سبيله ولا حول ولا قوله إلا بالله العلي العظيم.

مشائخي

ذكرت فيما سبق مشائخي الذين وقفت على ساحل عيالهم الزاخرة فأخذت عنهم بطريق السماع والقراءة أما مشائخي الذين أروي عنهم بطريق الإجازة العامة فكثيرون، وفيهم أعلام الإمامية في ذلك العهد، وآخرون من شيوخ مشائخ اخواننا أهل السنة والجماعة وبعض الإثبات من علماء الزيدية ذكرناهم على سبيل التفصيل في كتاب أفردناه لهم أسميناه (طبقات الرواة) فصّلنا فيه أسانيدهم بطرق إلى جميع الكتب والمؤلفات في جميع العلوم والفنون عقلية ونقلية، وأوردناهم في رسالة أسميناها (ثبت الإثبات في سلسلة الرواة) وهي رسالة مطبوعة ومنتشرة.

نصوص مشائخي في إجازاتهم

أقتصر الآن على ستة من أعلام الأعلام دونوا -رضي الله عنهم ورضوا عنه- نصوصهم بتلك الأقلام المباركة وذلك المداد الجاري في فضله مجرى دماء الشهداء.

أولهم:

شيخنا المقدس كبير الفقهاء وشيخ الطائفة في عصره الشيخ محمد طه نجف إذ جاء في إجازاته العامة[١] ما يلي:

وبعد فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: يحمل هذا العلم من كل خلف عدول ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وإن ممن حمل العلم من عدول هذا الخلف لينفي عنه تحريف الغالي وانتحال المبطل وتأويل الجاهل، وهو قوي على ذلك بعلمه وفهمه وحكمته لولدنا البر الثقة العدل والورع الهمام المقدام الفقيه الأصولي المحقق المدقق البحاثة القوي في حجته الصدوق في لهجته المعتدل في أسلوبه وطريقته المتفاني في النصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم الباذل نفسه في خدمة الشريعة المقدسة، شريعة جده سيد المرسلين، والمجاهد في سبيل إحياء أمر العترة الطاهرة آبائه الميامين السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي أعز الله به الإسلام وأهله، فإنه من أعلام الهدى ومصابيح التقى بلوته فوجدته ذا ملكة قدسية في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية فإذا هو مصداق الرجل الذي عناه الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام بقوله:((انظروا إلى رجل منكم قد روى حديثنا وعرف أحكامنا فاجعلوه قاضيا فإني قد جعلته فتحاكموا إليه)).

وفي حديث آخر عنه عليه السلام:((فارضوا به حاكماً فإني قد جعلته حاكما فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما بحكم الله استخف وعلينا رد والراد علينا راد على الله وهو على حد الشرك بالله عز وجل)).

فعلى المؤمنين أن يرجعوا إليه في الفتوى وفصل القضاء، فإن حكمه الفصل وقضاءه العدل لا يسع المؤمن إلا إنفاذه والنجوع له، وليهتد المؤمنون بهديه وليكونوا عند أمره ونهيه والمرجو منه ألا يترك الاحتياط ولا ينسانا من الدعاء ولاسيما في مظان الإجابة أيد الله به الدين، وجمع به على الحق كلمة المسلمين إن أرحم الراحمين.

ثانيهم:

شيخنا الإمام المقدس الشيخ محمد كاظم الخرساني إذ جاء في إجازته العامة[٢] ما يلي:

أما بعد فإن الله سبحانه كرم بني آدم وفضلهم على كافة العالمين ومَنَّ عليهم بالتكليف وأسعدهم بخطابه الشريف وبعث فيهم النبيين مبشرين ومنذرين وآثرنا بأفضل أنبيائه والوسيلة لأهل أرضه وسمائه فشرع لنا الدين القويم وهدانا إلى الصراط المستقيم ثم اختاره الله إليه بعد أن نصب لأمته علما تعتمد عليه.

---

(١) المؤرخة مستهل المحرم الحرام سنة ١٣٢٢.

(٢) المؤرخة يوم التاسع من ربيع الأول سنة ١٣٢١.

أقامه مقامه ونص عليه مراراً بالخلافة والإمامة وفرض طاعته وأبان عصمته وجعل له في العالمين منزلته فالحمد لله على إكمال الدين بذلك، وإتمام النعمة بما هنالك ثم لم تزل الإمامة من بعده في المعصومين الذين نص عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ولده حتى انتهت إلى خاتم الأوصياء ومَنْ بوجوده ثبتت الأرض والسماء فاختار له الغيبة لحكم تطمئن إليها قلوب المؤمنين.

فالحمد لله رب العالمين إذْ لم نكن من أهل الريب وكنا ممن يؤمن بالغيب، وقد أوجب علينا أن نرجع أيام غيبته في الأحكام إلى رأي العلماء الأعلام فإنهم نوابه وسفراؤه وحججه وأمناؤه، وإن سيادة السيد السند والثقة الفقيه المجتهد المنزه من كل شين السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي شد الله أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه، مجتهد مطلق موثق قد أصبح من أهل الذكر الذين ترجع إليهم العباد، وترقى من حضيض التقليد إلى أوج الاجتهاد فخفقت ألوية النيابة عليه وألقت بأزمتها إليه وحرم عليه التقليد ووجب عليه العمل برأيه السديد.

فليتمثل المؤمنون أمره ونهيه وليرجعوا إليه فإنه حجة عليهم ماضية فيهم حكومته ويحرم الرد عليه فإن الراد عليه راد على الله تعالى وهو على حد الشرك بالله عز وجل، والمأمول منه أن يسلك جادة الاحتياط فإنها سبيل النجاة والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثالثهم:

شيخنا المقدس الإمام الشيخ آقا رضا الهمداني إذ جاء في إجازته العامة[1] ما يلي:

وبعد فإن الواجب على عامة المؤمنين والمؤمنات في هذه الفترة -زمن الغيبة- أن يرجعوا في الأحكام الشرعية إلى رأي الأحياء من أعلام الإمامية الجامعين للشرائط المعتبرة في الافتاء والقضاء عندهم من الاجتهاد والعدالة وغيرها.

وإن من الطبقة العليا ولدنا الأبر التقي النقي الثقة العدل الأمين على شؤون الدنيا والدين السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي جمع الله به الكلمة ورفع بجهوده شأن الأمة، فقد اشتهر في فضله وبهر في نبله وعلت منزلته في الدين والعلم فقها وأصولا وما إلى ذلك من علوم وفنون، فهو ذو ملكة راسخة قدسية في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية يباح بها للعوام أن يرجعوا إليه في تلك الأحكام ويجب عليهم تنفيذ حكمه في المرافعات وفصل الخصام فإنه من العلماء المحققين والفقهاء المجتهدين الذين أشار إليهم الإمام الصادق عليه السلام في حديثه مع عمر بن حنظلة وقد سأله عن رجلين من أصحابنا يكون بينهما منازعة في دين أو ميراث كيف يصنعان؟

قال عليه السلام:((تنظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف

---

(١) المؤرخة يوم الثامن من ذي الحجة سنة ١٣٢٠.

أحكامنا فارضوا فيه حاكما فإني قد جعلته عليكم حكماً فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منهم فإنما بحكم الله استخف وعلينا رد والرد علينا راد على الله وهو على حد الشرك بالله عز وجل))، ونحوه عليه السلام مع أبي خديجة المأثور المشهور، وأوصي السيد السند بلزوم جادة التقوى والله تعالى هو الموفق فإياه نعبد وإياه نستعين.

رابعهم:

شيخنا الفقيه العلامة الشيخ عبد الله المازندراني إذ جاء في إجازته العامة[1] ما يلي:

أما بعد فإن جناب السيد السند والكهف المعتمد عماد الملة والدين ثقة الإسلام والمسلمين السيد السيد عبد الحسين نجل السيد الأجل السيد يوسف شرف الدين العاملي، مجتهد مطلق في الأحكام الشرعية جامع لشرائط الإفتاء والقضاء من الاجتهاد والعدالة وغيرها يجب عليه أن يعمل بما يراه ويحرم عليه أن يرجع في أحكام الدين إلى مجتهد سواه ويجوز للعوام أن يقلدوه في المسألة التي لا يعلم أنه مخالف فيها لمن هو أعلم منه ولهم أن يترافعوا إليه فإنه نافذ الحكم ممضي القضاء، والراد عليه راد على الله تعالى، وفقنا الله وإياه لخدمة الدين وسلوك جادة العلماء العاملين إنه أرحم الراحمين.

خامسهم:

وشيخنا المقدس الفقيه في سائر العلوم والفنون فتح الله الشيرازي المعروف بشيخ الشريعة الأصفهاني إذ جاء في إجازته العامة[2] ما يلي:

وقد أيد الله هذا الدين المتين بالعلماء وجعلهم ورثة الأنبياء وفضل نومهم على عمل الصلحاء، إلى أن قال: وإن من هذه الروضة المرضية المخضرة الأطراف، والدوحة البهية الزاهرة الأكناف غصن شجرة السيادة ونور حدقة السعادة صاحب الذهن الوقاد والطبع النقاد والقريحة القويمة والسليقة المستقيمة السالك أوضح المسالك في استنباط الفروع من المدارك العالم العامل البهي التقي النقي المبرأ من كل شين السيد عبد الحسين الموسوي العاملي أيده الله بلطفه الخفي والجلي ابن علم الأعلام وملاذ الأنام ومرجع الخواص والعوام سيدنا السيد يوسف شرف الدين صانه الله تعالى عما يوجد والتأسف والتلهف، فإنه هاجر عن وطنه ونفر عن مسكنه وبعد عن الأتراب والأقران وشطت به الديار والسكان فحضر على ثلة من العلماء الأعيان وعلى هذا الضعيف مدة من الزمان فلم يقنع من السماع إلا إلى التحقيق ومن النظر إلا إلى التحديق، وجد واجتهد في طلب المعالي ووصل يقظة الأيام بإحياء الليالي وناظر ونوظر وراجع وروجع حتى فاق الامثال والأقران وصار مشاراً إليه بالبنان بصيرا بمعضلات المسائل الفقهية ومشكلات المطالب الأصلية والفرعية، وتكلم معي مرارا بما كشف عن كون نظيره نزيرا، واختبرته يبعض

(١) المؤرخة سلخ صفر سنة ١٣٢٢.

(٢) المؤرخة رابع شهر المحرم سنة ١٣٢١.

السيد شرف الدين في شبابه

مقفلات المسائل فوجدته بطرق فتحها وحلها خيرا فحق لي أن أقول إنه قد ترقى من حضيض التقليد إلى أوج الاجتهاد وصار من أهل الذكر الذين يرجع إليهم العباد فيما يتعلق بالمعاش والمعاد فليحمد الله تعالى على ما أتاه من النعم الجليلة والآلاء الجميلة.

سادسهم:

سيدنا ومولانا الإمام الجليل السيد اسماعيل الصدر إذ كتب إلى أهل صور بعد أن استوطناها كتابا[1] هذه صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم السلام التام على كافة المؤمنين من إخواننا الكرام ولاسيما أهل السداد والإيمان من أهل صور وفقهم الله تعالى لنصرة الحق وإعزازه وانتقاص الباطل وإذلاله واستعمال الخير وهجر الشر وإحياء السنن وإماتة البدع والاقتداء بأبرار العلماء الذين فضل الله مدادهم على دماء الشهداء إنه أرحم الراحمين.

أما بعد فقد سرنا قيامكم بواجب الوظائف من خدمة السيد السند والثقة الفقيه المعتمد قدوة العلماء الفاضلين وأسوة الفقهاء المبرزين الأوثق لدينا والأعز علينا السيد السيد عبد الحسين شرف الدين رفع الله مناره فذكرناكم وشكرناكم وحمدنا الله تعالى على ما أولاكم من الأخذ بحظكم من خدمته والفوز بنصيبكم من رشده وهدايته، هداكم الله به إلى سواء السبيل ودحض بشريف وجوده عنكم الأباطيل، ومنحكم به الهناء والسرور والسعادة والغبطة والحبور، فاهتدوا بهديه واعتمدوا على رأيه وأعرفوا قدره وكونوا نصب نهيه وأمره فإنه لا يأمركم إلا بمعروف ولا ينهاكم إلا عن منكر وارجعوا إليه في أحكام الدين واتخذوه واسطة بينكم وبين رب العالمين فإن الحجة عليكم والنعمة لديكم، واجعلوا قوله فصلا فإنكم لا ترون منه إلا عدلا، امضوا حيث يمضي واذعنوا حيث يقضي وتعبدوا بأقواله واقتدوا بأفعاله واستضيئوا بنور علمه فإنه من زيتونة نبوية لا شرقية ولا غربية مرجع عام ومفزع في فتاوة الأحكام وقد سرنا مكانه في صور لأنا لا نعلم من يصلح أن يكون لدى الأجانب عنوانا لعلماء الإمامية مثله في عمله وفضله وعقله وعدله وسعة باعه ووفور إطلاعه وجودة ذهنه وحسن استحضاره وشدة حذقه وبراهينه القاطعة وحجته الساطعة وأجوبته السكتة وخطابته البليغة وتقواه وسداده وهداه ورشاده وعفته وإبائه وكرم أخلاقه وسياسته وتوكله على الله وخبرته بنهج الأئمة عليهم السلام، وإنا لنغبطكم عليه ونتمنى دوام القرب إليه فاسمعوا له وأطيعوا وارجعوا إليه في أحكام الله عز وجل والرد عليه كالراد عليه عز سلطانه فاعرفوا قدره واستعظموا أمره وأوصيه ونفسي وإياكم بتقوى الله تعالى وسلوك جادة الاحتياط فإنها طريق النجاة ولا تنسونا من دعاكم وفقكم الله ورعاكم والسلام على جنابه أيده الله تعالى وعليكم وفقكم الله تعالى ورحمة الله وبركاته.

---

(١) تاريخه ١٦ ذي الحجة سنة ١٣٢٦.

رجوعنا إلى عاملة

لما أسفرت للمقدس والدي تباشير ظفره بما يبتغيه من هجرتي العلمية وأشرقت لديه دلائل فوزه ونجحه بذلك واطمأن به كل الاطئمنان أجمع على إرجاعنا إلى عاملة، وكان إذا أزمع أمرا لا ينثني عنه إلا أن يشاء الله تعالى ولم يكن لنا بد من الخضوع لأمره والنزول على حكمه، إذ لم نجعل لأنفسنا تصرفا ولا مراغا عن ذلك فاستسلمنا للأمر المطاع- وإن أرهقنا فراق تلك المشاهد الشريفة والأندية العلمية أمرا صعبا وبلغ منا الجهد متوكلين على الله عز وجل مبتهلين إليه في طلب الخيرة من عواقبنا فإن الخير كله بيده وهو على كل شيء قدير.

زمت ركائبنا من النجف الأشرف تاسع ربيع الأول سنة ١٣٢٢ وكنت إذ ذاك محبواً بخدمة والدتي محبورا بالمقدس أخي وسائر من إلي[١] وما إن قاربنا دمشق حتى وجدنا ولي النعمة قد استقبلنا أعلى الله مقامه في ثلة المؤمنين من أهل دمشق وعاملة فيهم صنواه عماي الكريمان[٢] والعلامتان السيد محسن والشيخ محمود مغنية.

ولله ما مثله من الحنان والحنو حين ضمنا إليه قدس سره بجناحي رحمته وحنا علينا بعطفه ورأفته ورقت لنا كبده ولأن فؤاده فأرخت عيناه القريرتان أرواقهما اغتباطا وبهجة وحبورا، أنزلنا السيد المحسن رحابة فإذا هي رحاب الندى ونجعة المكارم ومثل أرحامنا الأشراف المرتضيون من آل نور الدين عواطف الرحم وأواصرها بأجلى المظاهر[٣] واحتفل بنا إخواننا المؤمنون ثمة بوجوه منطلقة وصدور رحبة وأسرّة تهلل فتبرق برق العارض المتهلل ثم تواترت علينا زراقات المستقبلين من أهل شحور وناحيتها فكّروا بنا راجعين إليها[٤] وكنا في الطريق نلتقي بالمستقبلين زمرا زمرا حتى أتينا بانياس فوجدنا ثمة من المستقبلين جموعا كثيرة وقد حشّدهم الشهم ابن العرقوبي رئيس البلد في أندية ضيافته وكان من أجواد العرب يخف للقرى ويرتاح للندى ولا ننسى ما رأينا من شهامة طبعه وسعة ذرعه أبدا.

سار معنا في ذلك الجمع المحتشد حتى أتينا عديسة فوجدنا ثمة أعلام البلاد السيد علي محمود والسيد نجيب فضل الله والسيد حيدر مرتضى وصنوه السيد جواد والشيخ حسين مغنية فمن دونهم وفي خدمتهم زعيم عاملة السياسي كامل بك بن خليل بك الأسعد ووجوه العشائر وأعيان البلاد فتابعوا بنا السير بعد تبادل التحية بيننا وبينهم بآدابها الشرعية، حتى نزلنا بتلك الجماهير في رحاب الكامل الطيبة فأخذته أريحية الكرم، ومدت باعه يبارى الغيث جودا ((فما كعب بن مامة وابن أروى)).

---

(١) من الأولاد أبي عبد الرؤوف وشقيقته ووالدتهم وقد جددنا بهم العهد في هذه الحركة بالمشاهد المشرفة كما ادينا الواجب من وداع أهلنا في الحائر(كربلاء) والكاظمية.

(٢) المقدسان السيد اسماعيل ومعه ولده السيد عبد الله والسيد حسين ومعه ولده السيد محمد.

(٣) زاروا بنا مشهد السيدة أم كلثوم عقيلة الوصي وحضرة أهل بيت النبوة وتشرفنا معهم بسائر المشاهد في دمشق المنسوبة إلى أهل البيت عليهم السلام

(٤) وقد شيعنا السيد المحسن هو ووجوه المؤمنون إلى خارج دمشق.

وبعد تناول ذلك الطعام الهنيء المريء تابعنا السير فكنا نلتقي بالناس أفواجا أفواجا مشاة وركبانا حتى أتينا قريتنا شحور[١] فوجدناها مكتظة بمن أقعدتهم الشيخوخة أو الضعف أو غير ذلك من الموانع، لم أر في تلك الجموع كلها إلا ذا مسرة وحبرة وقد وجد قرة عينه وبرد السرور في فؤاده.

جزاهم الله عنا خير جزاء المحسنين.

وعزم علي أولئك العلماء الأعلام أن يصلوا المغرب والعشاء بصلاتي ولم يتركوا مندوحة لي عن ذلك فنزلت على حكمهم عملاً بمقتضيات الآداب.

وكانت ليلة اغتباط وبلج بخدمة أولئك الحجج، وحين انفردوا بنا عمن سواهم وأخذ المجلس زخرفه منهم، ترامى الحديث بنا إلى بعض الفروع المشكلة فأفضنا وأفضوا في البحث عنه وتجاذبنا أطراف الكلام فيه فأفضى بنا الأمر إلى بعض الأصول العلمية فخضنا معهم في البحث عنه وأخذنا في المراجعة والمناظرة واحتدم النزاع تلك الليلة وغدوتها احتداماً عاد بنفع جزيل وفوائد جمة.

فلله تلك الخلسة من الدهر ما أجزل فوائدها وما أفضل عوائدها، وهكذا كانت سيرة علمائنا كلما اجتمعوا وأينما انتدوا.

ثم توالت الوفود (وفود الزيارة والتهنئة) من أنحاء البلاد العاملية مدة ليست بالقصيرة كان العلماء والفضلاء والأدباء والشعراء لا يبارحون الحشد، وكم قرطوا الآذان بفرائدهم وشنفوا الأسماع بالدر من خطبهم وقصائدهم وإليك من ذلك عبقرية ابن العم السيد الشريف هاشم[٢] بن السيد محمد هاشم الموسوي:

بمثل عيونك يحلو الغزل ... وإن كنّ يدنين مر الأجل
ويستعذب الصب ورد الردى ... بمستملح من سهام المقل
فكم من فتون لأهل الهوى ... أتى من فتور العيون النجل
وكم من حشا لأخي صبوة ... بها دمه صب هدرا وطل
على وجنتيك زهت روضة ... يفتح منها الورود الخجل
وفي الثغر منك حلت ريقة ... هي الشهد في ذوقها لا العسل
بكوثرها العذب برء الضنى ... وري الأوام وبرد الغلل
فيا جنة الحسن بي جنة ... لما كان حبك بي قد فعل
يسرك أني اشكو الضنى ... وفي شفتيك شفاء العلل
أجورا علي بحكم الهوى ... وماذا على جائر لو عدل؟
وهجرا طويلا ولا ذنب لي ... وما الهجر إلا لذنب حصل

(١) مستهل جمادى الثانية سنة ١٣٢٢.

(٢) المتوفي أعلى الله مقامه في بلدة (دير سريان) سنة ١٣٣٤ وكان من الفضلاء البررة والأدباء الكاملين في الأدب وله ترجمة في بغيتنا- بغية الراغبين.

هنيئاً لك اليوم ما شفتني ... لهجرك حتى عدمت الحيل
سفكت دما لي يوم اللوى ... حراماً فكيف لعينيك حل؟
فأصبح هدرا ولا عاقل ... وقد طل عمداً بذاك الطلل

إلى أن قال:

فدع عنك وصف ذوات الجما ... ل وتذكار ظل الصبا المنتقل
وقم واقتبل دهر أنس أتا ... ك بما عنه كفر ماضي الزلل
وقل منشدا بارتجال فقد ... غدا الأنس في قطرنا مرتجل
ألا غنّ يا عندليب السرور ... وهبي لنا يا رياح الجذل
ويا ساقي الخمرة أصرف لنا ... فراحك ما رحت منه ثمل
فشمل السرور غدا شاملا ... وفصل الهناء غدا متصل
وذا الكون أضحى بعبد الحسـ ... ـين منيراً يتيه بأسنى الحلل
وهذي البلاد غدا أفقها ... وبدر علاه به مكتمل
ثنت عظمتها بالهنا عامل ... به وتبسم ثغر الجبل
وقرت عيون المعالي به ... وماثل ركن الرشاد اعتدل
هو العلم المفرد الجامع الـ ... ـفضائل من دق معنى وجل
إمام الهدى وحمام العدى ... ورب الندى مزنه المستهل
فتى قد تربى بحجر العلى ... فشب على حبها واكتهل
وأصبح روحا لجسم الكمال ... وبدرا بأوج الهدى مكتمل
عليم على عمل زانه ... وما زينة العلم إلا العمل
حليم يوازن شم الجبال ... حجى راسخاً طوده لم يزل
سخي الأنامل إما افتدى ... يباري السحاب إذا ما هطل
عديم المثيل على شامخ ... من الفضل يضرب فيه المثل
له فكرة كم تجلى لها ... من المشكلات دجى منسدل
وخلق لطيف يحاكي الصبا ... برقة طبع عليها جبل
به الدين أصبح مستبشرا ... يجر برود الطروب الجذل
وألقت إليه مقاليدها ... شريعة أحمد خير الرسل
فعزت به جانبا مثلما ... بها عز جانبه أن يذل
فأهلا به اليوم من قادم ... به نقعت زفرات الغلل
أتى والقرين له صنوه ... فنعم القرين الذي لا يمل
من ابتسم العصر أنسا به ... ووجه المسرة فيه استهل
وعمّ الهنا عاملا منذ حل ... بها والعنا فيه عنا ارتحل

هو الكامل الفذ أعني الشـ ـريف ومن حل في المجد أسمى محل
ومن ألفت منه بكر العلى فتى لم ترد عن علاه بدل
حليف الكمال ورب المعالي وغمر النوال وإن لم يسل
عطير الثناء ومهوى الرجاء وزاكي السناء وزاد المقل
به الفضل يزهو لنا زاهرا ونور الهداية فيه اكتمل
وحلم رزين الحجا راسخ وفضل بفضل رداه اشتمل
تشاغل إلا عن المكرمات وكسب المحامد لم يشتغل
له الله من قادم أثلج الصد ور هناً وأقر المقل

إلى أن قال:

فقل لأكف هنا صافحي أكفا تزاحم فيها القبل
من المستطيل على النيرات على حط دون مداه زحل
زعيم الهدى والندى يوسف ومهوى ركاب الرجا والأمل
عماد الشريعة ذخر الهدى وعز العشيرة أمن الوجل
فيا خلف الغر من هاشم ومن هو فيها الأعز الأجل
إليك التهاني تهادى وفي فنائك ذا وفدها قد نزل
فقم واقتبل سعد هذا الزمان فسعد الزمان عليك اقتبل
تهن بشبليك عمر المدى فإن الهنا بهما قد شمل
بفضلهما شهدت للورى أولو الفضل من هم مدار العمل
فكونوا جميعاً ملاذ الورى وربع كلاكم خصيب خضل

وهاك شذرة من قصيدة الشريف الفاضل الجليل السيد أحمد بن السيد محسن قنديل:

أوجهك وضاح أم البدر كامل وقدك مياس أم الغصن مائل
وشعرك أم ليل الدجنة فاحم وتلك لحاظ أم سهام قواتل

إلى أن يقول متلخصا:

إليك أغتدى يعزى الجمال جميعه إذا ما جرى بين الحسان التفاضل
كما أصبحت تعزى لخير بني الورى أمام الهدى عبد الحسين الفضائل
فتى المجد من يزهو به المجد والعلى ومن باسمه تسري وتحدو القوافل
منار هدى يهدي المضلين نوره وبحر له المعروف والفضل ساحل
سما للعلى شأوا فحلق رفعة ونال مقاما شامخا لا يطاول
وأجهد في كسب المفاخر نفسه إلى أن صفت منها لديه المناهل
وأحرز منها غاية السبق وانثنى تشير إلى عليائه منا الأنامل
اقيمت له فوق السماك مراتب وشيدت له فوق الضراح المنازل

بـدا بسماء الفضـل بـدر هداية وأشـرق فـي أفق العلـى وهو كامل
أطـل علـى أفـق الشـآم بطلعة هـي الشـمس لكن الشموس أوافل
بـه نعم القطـر العراقـي وازدهى إلا فـانعمي عينـا بـه اليوم عامل
لقد حـل فيها للشـريعة كـافلاً ومـن ذا سـواه للشـريعة كـافل

في شحور:

أرادني ولي النعمة أن أتصدى وأنا في خدمته للأمور الحسبية وسائر الشؤون العامة لكن حقه العظيم فرض عليّ شرعاً وعقلاً أن أكون في خدمته كما كنت في حضنه وأنا طفل لا أمر ولا أحلي أسوة بكل مبذول المقادة له من سواد العامة.

فكان كلما حملني على ما أراد أضرع له جنتي استعفاء وأتضاءل بين يديه استحياء فيرفق بي حنانا منه ورحمة وما كنت لأعتاص عليه[١] ولا لأرتاب بين يديه وإنما عنت له جبهتي وتصاغرت عنده همتي عملاً بما أدب الله به عباده على لسان عبده ورسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى هذا جرى الأمر بيننا إلى منتهاه والحمد لله.

زارنا المؤمنون من أهل صور وكان لهم من قبل اتصال بولي النعمة فرغبوا إليه في أن أكون بين ظهرانيهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورعاية الدين ونشر أحكامه.

ركبوا في ذلك إليه ظهور آمالهم يزفون إليه حاجاتهم هذه متوسلين بما أوجب الله تعالى على كل من نفر للتفقه في الدين من إنذار قومه إذا رجع إليهم لعلم يحذرون، فعني أعلى الله مقامه بأمرهم واهتم بشأنهم وأمكنهم من بغيتهم فرجعوا عنه بنجح الحاجة يعطرون المجالس بذكره ويخطبون في المحافل بشكره.

في صور:

أتينا منتصف ذي الحجة سنة ١٣٢٥ وألقينا فيها العصا متوكلين على الله عز وجل. وقد أنزلنا بعض المؤمنين المخلصين[٢] داره وكان قد أخلاه لنا فإذا هي وادي الندى ونجعة المكارم ثم تحولنا بعدها إلى الدار التي لا تزال في أيدينا[٣].

أثر مجيئنا:

وبحلولنا انتظمت ألفة المؤمنين فإذا هم كأنجم الثريا وكانوا قبل كبنات نعش قد سعى بينهم

---

(١) يقال اعتاص علي في هذا الأمر إذا تشدد عليك فيما تريده منه.

(٢) هو العبد الصالح الحاج محمد بن العبد الصالح الحاج حسين بحسون.

(٣) وذلك يوم الغدير سنة ١٣٣٢ فإذا هي دار واسعة الأرجاء محكمة البناء مرتبة في وضعها ومحاسنها على أكمل هندسة، تحوطها جنينة من جميع نواحيها تجري المياه في خلالها استقل بهذه الحسنة نفر يسير من مخلصي المؤمنين اشتركوا بها متنافسين فيها من غير أن يشعروا بها أحدا حتى تحولنا إليها على بركة الله تعالى فجزاهم الله خير جزاء.

متزعمون عملا بالقاعدة الإقطاعية فرق تسد لكن الله سبحانه لم شعثهم ملتفين بي اخوانا يتعاونون على البر والتقوى وطاعة الله سبحانه وتعالى فيما أمرهم ونهاهم.

لم يكن في صور مسجد يخولهم عقد الجماعة فيه[١] ولا محل معد لاجتماعهم عند الاقتضاء فكنا نعقد الجماعة في الفرائض اليومية ونلقي الدروس الدينية وما إليها في الباحات من بيوت بعض المؤمنين.

وكان أولو الباحات يتنافسون في دعوتنا ويتشاحنون حتى تشادوا فكان الفضل بينهم أن نستقصيهم مبتدئين بالأقرب منهم فالأقرب فعلنا ذلك في دورات عديدة فاشتد الوئام وكثر الازدحام حتى اكتظت الأندية بالمحتشدين فلا تندوهم النوادي.

ابتداء النهضة:

وحينئذ دعوت وجوههم فاستصرختهم برفق وشكوت إليهم بثي وحزني ومصيبتي بما أنا لا جامع لنا ولا جامعة ولا مجمع ولا جمعية ولا جمعة ولا عيد ولا أذان ولا عنوان ولا مدرسة ولا ولا..

يدخل الأجنبي صور -وهي عنوان الإمامية في البلاد العاملية- فلا يحس منهم بأحد ولا يسمع لهم ركزا، يراهم وهم الأكثرية في معزل عن المسجد الحافل بغيرهم من المسلمين، ويجدهم نائين عن منارتهم الآهلة بغيرهم تكبيرا لله وتوحيدا له ودعوة إلى عبادته عز وجل، حتى كأنهم والعياذ بالله ليسوا من هذه الأمة ولا مشاعرها في شيء.

ويرى النصارى على اختلافهم في المذاهب المسيحية (من كثالثكة وموارنة وأرثوذكس وبروتستانت) متنافسين في إشادة معابدهم وزخرفتها أديارا ممردة وكنائس فخمة ترن نواقيسها فتملأ الأفق برجع صداها ونحن من دون الأمم صم بكم لا منائر ولا شعائر ولا منابر كأننا لا سمح الله لا دين ولا مذهب ولا حمية ولا نفسية ولا دم ولا عرق ينبض.

أطلت القول في ذلك وامتد بي نفس الكلام عملا بمقتضى تلك الأحوال راغبا إليهم في اتخاذ مسجد يجمعهم على عبادة الله تعالى ويطلق عنهم ربقة هذا الخمول فإذا المتنفذون يستخفونني عن رأيي[٢] ويستفزونني عن عزمي فنفضت يدي منهم وعلمت أني إنما استصرخ منهم غير مصرخ وأشتكي منهم إلى غير مشكي، لكن عزيمتي لم تفشل ومريرتي لم تسحل، وكان أولئك المتزعمون قد صقلوا بصدودهم عنا أذهان المخلصين فجلوا عنها صدأ الفتور فما خنست بعدها لهم همة ولا انقبض لهم ذرع.

الحسينية:

حتى تبرع أحدهم بداره[٣] مجمعا للطائفة ومثابة لها أوقات الفرائض الخمس وعند كل

(١) لم يكن في صور سوى مسجد واحد هو من آثار الوائليين زعماء الشيعة في عاملة.

(٢) أي يلزمونني عما كنت عليه من الصواب ومعنى يستخفونني: يحملونني على الخفة وترك الأناة والتثبت.

(٣) هو الحاج سليمات الرز.

اقتضاء، فتقبلتها منه بثمنها، مائتي ليرة عثمانية ذهبا ألزمته بقبضها رفقا بحاله وعياله ووقفت الدار في سبيل ما يرجى عوده بالروح على روح سيد الشهداء وخامس أصحاب الكساء عليهم السلام ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب ونسبتها إليه صلوات الله وسلامه عليه فدعوناها الحسينية وشرعنا بعبادة الله تعالى فيها يوم الغدير سنة ١٣٢٦هـ.

فكانت مثابة الوفاد ونجعة الرواد إحدى وعشرين سنة[١] وكنا طيلة هذه المدة نتيممها بدلا عن المسجد في كل ما يشغله من أنواع للعبادة[٢] ونتيممها بدلا عن دار الندوة في كل ما يعقد وينقض من أمورنا العامة ونتيممها بدلا عن محكمة تصدر الحكم بما أنزل الله تعالى في كل مرافعة بين المؤمنين ونتيممها بدلا عن مدرسة حافلة بالعوام يتلقون فيها ما هو محل ابتلائهم من أصول الدين وفروعه وما إليه من آية وسنة وحكمة وموعظة.

ونتيممها أيام المواسم لأداء المراسم ولاسيما يوم عاشوراء وسائر ايام المحرم الحرام ولياليه وخصوصا العشرة الأولى منه ويوم المولد النبوي الشريف ويوم الغدير العلوي إذ يهرع إلينا المؤمنون من نواحي الحبل العاملي.

المسجد:

بلغنا بالحسينية بلغتنا من هذه المهمات كلها[٣] غير أنا لم نحرز بها فضل المسجد فإن ثوابه يعدل مائة من ثوابها على أنها لم تنعشنا من خمول ولم تربأ بنجمنا عن أفول، لذلك بذلنا الوسع في إشادة الجامع، فاخترنا له قطعة واسعة من خراب صور تربو على ثلاثة عشرة دونماً من الأراضي التي كانت في قبضة الملوك العثمانيين فأبرقت للسلطان محمد رشاد استمحيها منه للطائفة وقفا في سبيل الله.

وما إن أبرق منعما بالإجابة حتى أسسنا الجامع في وسطها على هندسية جامع الجزار في عكا، وما فرغنا من قواعده الراسخة من تخوم الأرض إلى سطحها حتى مني العالم بقارعة الحرب العالمية سنة ١٣٣٢هـ[٤] فاشتغلنا بويلاتها عن كل شيء.

ولما وضعت أوزارها وذلك سنة ١٣٣٦هـ[٥] وثاب إلى الناس رشدهم ثبنا إلى الجامع لنكمله فكان محله يومئذ خارج البلد بعيدا عن المصلين ووجدنا المحل الذي أشدنا فيه الجامع الجديد أقرب إلى الناس وأسهل عليهم فآثرناه فكان المسجد حيث هو اليوم على شكله الحالي.

---

(١) حتى استغنينا عنها بالمسجد الجامع سنة ١٣٤٧هـ.

(٢) ما عدا الاعتكاف فإنه لا يصح فيها.

(٣) وبذلك قال الناس في تاريخها: جاءت بروح شعائر الإيمان سنة ١٣٢٦هـ.

(٤) الموافق لسنة ١٩١٤م.

(٥) الموافق لسنة ١٩١٨م.

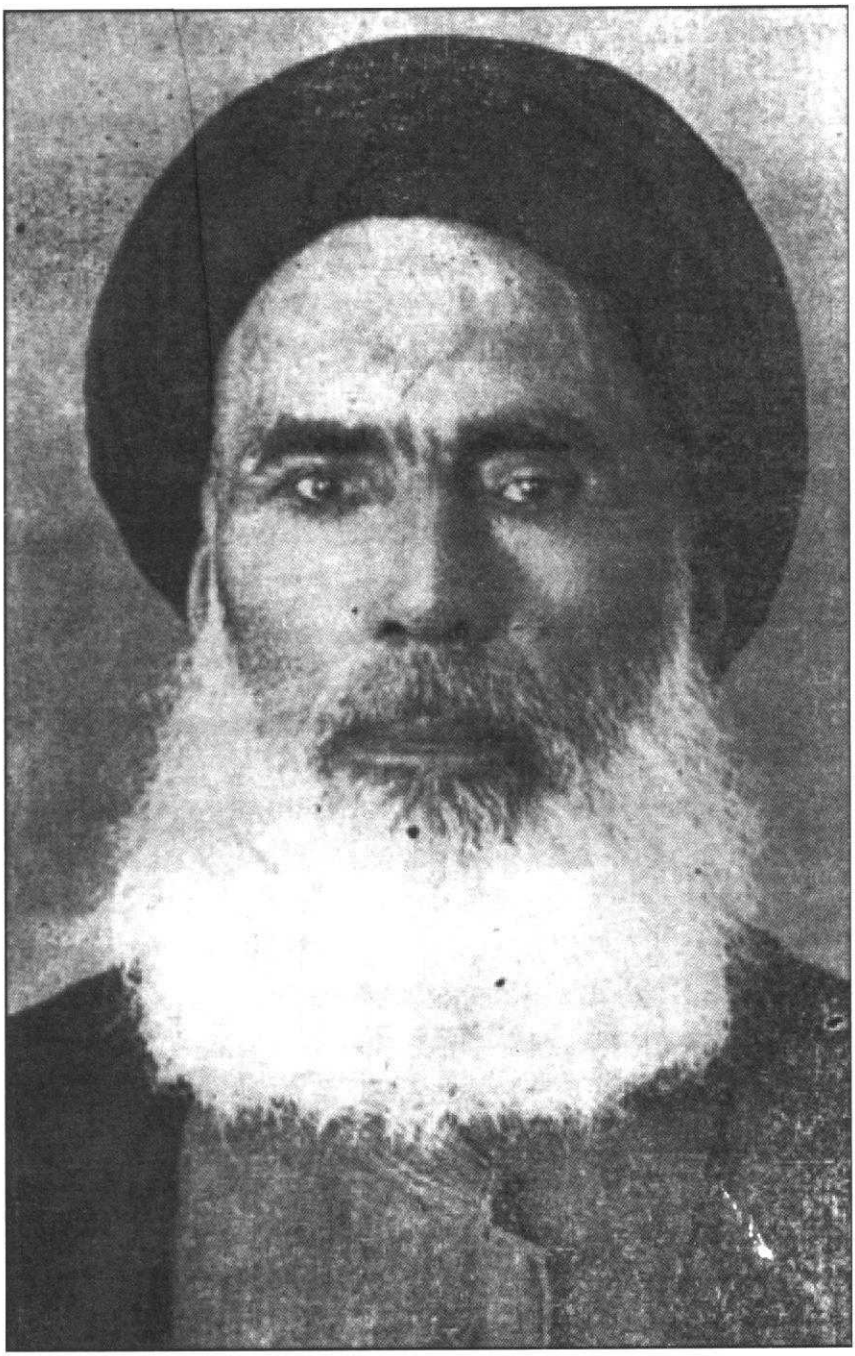

فخر العروبة والاسلام الإمام المجاهد السيد شرف الدين

أثر المسجد ومنبره:

أنعش الله مؤمني صور بهذا المسجد ورفع به صوتهم يدوي في أوساط عاملة وفاح عرفهم يتضوع في طول البلاد وعرضها فتتابع إليهم في كل جمعة أخوانهم من أهل القرى العاملية فإذا بهم من كل حب ينسلون يهرعون للعبادة والاستفادة، ولتعظيم الشعائر مبتهجين بمظاهرهم في شعائرهم وبما يصدح به منبرهم من حقائق ودقائق لا تأخذ المنبر فيه سطوة ولا يهاب فيها قوة فإذا آيات الحق محكمة، وإذا صحاحه مسلمة وإذا دلائله من العقل والنقل ومن الطبع والوضع ناطقة وإذا شواهده من الدين والإيمان ومن الحس والوجدان والسنة والقرآن صادقة، وإذا وجه اليقين يجلو بنوره كل ظلمة فلا شك هناك ولا شبهة ولا مرية -والحمد لله- ولا امتراء وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

ذلك من أثر المسجد ومنبره الذي فرض للحق وذويه مهابة وكم للمنبر من أثر ذي خطر عظم وقعه وعم نفسه وحسبك من آثاره المدرسة والنادي الجعفريان ومسجدهما المعمور ومعاهد ومعابد أخرى وصدقات جارية ووجوه من البر والإصلاح مختلفة.

المعهد العلمي وشرف العلم والمضي عليه:

كنت من بعيد أفكر في إنشاء معهد علمي يضمن تربية أبنائها تربية مستقلة بأخلاقها الإسلامية وأهدافها الإمامية ومثلها العليا تحمل من المعارف ما تفرضه المعاهد العصرية وتمتاز بالروح المقدسة المحمدية والحفيظة العربية الهاشمية المستقلة وتلك هي القوة المعنوية المرجوة للفتح المبين والبعث الجديد.

فإن للعلم سلطانا امتدت دولته على طول الزمان محكمة الصول نافذة القول تشرف على الارض متلألئة الاضواء مضمخة الأرجاء بعصارات العقول وخلاصات القلوب فتضيء الفضيلة ورجال الإصلاح حملة الألوية الخفاقة وقادة الرأي الحصيف يريشون الجناح المهيض ويرفعون المستوى الخفيض قدما في مدارج الكمال وتوقلا في معارج الرقي إلى حياة منعمة لا لغو فيها ولا تأثيم.

فالعلم نواة الحضارات وهو حظها في القوة والظفر والحياة وهو نفسه قياسها في التقدم والتأخر والحكم والسيطرة والسعادة والبؤس ولئن اختلفت مظاهر الحياة وظواهر الاجتماعات باختلاف العصور وتبادين البيئات فإن العلم بجوهره واحد في وجوبه وضرورته يسعى إليه أولو الألباب ويؤثرونه في كل عصر وتحت كل أفق.

وهم لا يجدون دينا يفهم من أسرار العلم ما يفهمه الإسلام الحنيف ولا تعاليم تأخذ بالعناق إليه كتعاليم الكتاب والسنة.

هل يستوي الأعمى والبصير؟ أم هل تستوي الظلمات والنور؟ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ إنما يتذكر أولو الألباب.

مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا؟..

أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء، وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون، إلى كثير من أمثال هذه الآيات البينات وحسبنا من السنة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومذكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة وهو الآنس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح على الأعداء يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخيرة قادة تقتصي آثارهم ويقتدى بفعالهم وينتهي إلى رأيهم))الحديث[1] وفيه ما يأخذ بالنفس شوقا وانقيادا على ارتياد المناهل العلمية.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: (اطلب العلم ولو بالصين) والصين هنا كناية عن مكان بعيد تزم إليه الركائب بين شدائد الترحال ومكاره الأسفار.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: (اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد) وهذا كناية عن قصر العمر عليه واستفراغه فيه.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: (طلب العلم فريضة) وبين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر[2] الجواد المضمر سبعين سنة وما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر وخيركم من تعلم العلم وعلم الناس إلى غير ذلك مما هو مأثور عنه صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الأوامر السامية التي بلغ المسلمون على ضوئها أبعد أشواط الحضارة والرقي والسياسة فملكوا أزمة الدنيا العلمية وعمروا حتى مجاهل الأرض بملكهم السياسي العتيد وكذلك العلم يفعل.

خطر المعاهد المسمومة:

فلما هدأت تلك الفورة الراغية المزبدة وانكدرت سماء المسلمين والغرب وغيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم فعاث الغاشمون بكتبهم ومكاتبهم المؤثلة بأنفس الأسرار وراحت الأمم المغيرة تتصرف بمقدراتهم ومقدساتهم ودهمنا الغرب بخيله ورجله فأناخ بكلكله وضرب بجرانه فاستحوذ علينا دخولا في مدارسه وإصغاء إلى وساوسه فاندفعنا نزج بأفلاذ أكبادنا إلى أحضانه تحوطهم طوائف منه أو من حملة ميادئه بالحضانة واللقانة حتى إذا خرج الفوج الأول من شبان الجيل المأمول علمنا أن الخسارة أكبر من الربح والإثم أكبر من المنفعة.

ولو فرضنا أن أولادنا قد غنموا بعض الثروة من قيمة الحياة الحاضرة فإنا قد خسرنا فيهم الروح الشرقة والمبدأ الحق والأخلاق الإسلامية والإخلاص والواجب وجهزنا منهم سلاحا يصيب نحورنا ويفري غلاصمنا فكنا في تعليمهم هذه المعارف المسمومة كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع مارن أنفه بكفه.

---

(١) تجده بإسناده في كتاب المعالم لمؤلفه الإمام المحقق الشيخ حسن صاحب المعالم ابن الشهيد الثاني(أعلى الله مقامهما).

(٢) الحضر: ارتفاع الفرس في عدوه.

فالجهل أقل ضررا من هذه المعارف الموبوءة، وفي الحق لقد خدعت أمتنا بأوهام من الغرور باطلة حيث أرادت استرجاع مجدها بتعليم ناشئتها فدفعتهم إلى أحضان هذه المدارس التي لم تتأسس في الشرق إلا للاستيلاء عليه بجميع ما فيه من دنيا أو دين، فاضرتهم ضررا لا يتدارك وأضاعت مجدها على وجه آخر هو أتقن وأبرع وأشد وأفزع إذ تخرجوا جنودا عليما وعلى مقدسات مبادئنا وتلك مصيبة ما مني الإسلام والشرق بمثلها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

المدرسة الجعفرية وترويض الصعاب في سبيلها[١]:

كنا نشهد المتخرجين من تلك المعاهد المسمومة فنضيق ذرعا وينزل بنا منهم هم مقيض وألم مسهد فنأرق على مضض السليم كليلة ذي العائر الأرمد، ومن الطبيعي أن ينتج الفكر لنا راحة تضمن ما نصبو إليه من متاع في علم يرجع لنا اليقظة التي بني عليها تاريخنا المجيد.

وفي مصارعة هذا التيار أوحى إلينا الواجب الديني أن نقوم بتأسيس المدرسة الجعفرية على الشرط الذي كنا نفكر فيه من بعيد فأمضيت نيتي على ذلك متوكلا على الله عز وجل فإياه نعبد وإياه نستعين، ثم صمدت بهذه المهمة مع نفر من أهل الإخلاص والحفيظة من اخواني في صور نزعت فيها إليهم بكل رجاء فخفوا على مبتغاي وصدقوني السعي وراء المهمة وكان الفرنسيون يومئذ يخطبون ودنا بواسطة ممثلهم في الجنوب.

وكان ممثلهم يعمل على ذلك لينسينا سيئاتهم معنا وكنا نحن إذ ذاك نلقاهم على حرف[٢] فأوعز إلينا أن نؤسس المعهد في القطعة الرشادية التي كانوا قد كفوا أيدينا عنها فأسرعنا فورا بكل همة وكل نشاط إلى عقد ستة مخازن بطرفها الشمالي[٣] صفا واحدا جاءت من أضخم المخازن التجارية طولا وعرضا وعلوا أمامها إيوان يسامقها طولا وسمكا.

وما كدنا نفرغ من بنائها كي يعلوها المعهد حتى لجأ المعارضون إلى المستشار الفرنسي في الجنوب وهو واسع البلعوم شره بالرشا فغل أيدينا عن القطعة وسعى إلى المفوضية الفرنسية سعايته التي حمله المعارضون عليها فوقانا الله شرها والحمد لله، وصبرنا على المحنة حتى ذهب إلى حيث ألقت رحلها[٤] فراجعت بعده السلطة المستعمرة وراودتها بالأمر مرارا فكانت النتيجة بعد اللتيا والتي تخييري بين هدم ما بنيناه من المخازن وغيرها أو دفع خمسين ليرة عثمانية ذهبا ثمن أرضه البالغة تسعماية وثمانية وأربعون مترا مربعا فقط[٥] وأعلنوا انذاري بذلك فاضطررت إلى دفع المبلغ لخزينة الدولة في بيروت وأخذت به وصلا رسميا[٦] واستلمت سند

(١) الصعاب جمع صعب من الدواب وراض الدابة يروضها روضا إذ ذللها وعلمها السير.

(٢) أي نلقاهم في السراء والضراء.

(٣) كانت كثبان الرمل هناك ممتدة متعالية في طول الأرض وعرضها فلاقينا في إزالتها جهدا شديدا اشترك فيه معنا أهل القرى المجاورة لصور كلها متنافسين تنافسا برهنوا على أن همة الرجال تزيل الجبال فجزاهم الله خير الجزاء.

(٤) يقولون إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم فيريدون المنية وقيل ان أم قشعم كنية الناقة نفرت فمرت على نار عظيمة فأجفلت فألقت رحلها في النار واستمرت في عدوها فصار ذاك مثلا يضرب للذاهب يدعى عليه بالسوء كناية عن ذهابه إلى النار.

(٥) دون ما سواه من تلك القطعة الرشادية.

(٦) موقعا عليه من أمين الخزينة وأمين الصندوق كليهما تاريخه ١٢ فبراير سنة ١٩٣٥م ورقم تسلسله ٢٢٤١٤ ورقم إيصاله ١٣/١٤.

التمليك[١] لتلك الأرض بما فيها وتشددوا يومئذ بمنعنا عما زاد عن ذلك المقدار من القطعة[٢] فامتنعنا مضمرين انقاذها منهم بعون الله تعالى ولو بعد حين[٣] وحينئذ سجلت المخازن الستة وإيوانها وسائر ما إليها من أرض وهواء وماء وقفا على الطائفة كما هو في المحضر رقم ٩٤٢ من عقارات صور وبينا الطابق العلوي فجعلنا فيه المدرسة والنادي الجعفريين.

وهنا قامت قيامة أولئك المعارضين وهموا بما لم ينالوا وكانت محاكمات أظهر الله بها الحق في المحكمة العقارية في صور[٤] ثم محكمة بداية الجنوب في صيدا[٥] وكتب الله لنا النصر عليهم في المحكمتين والحق يعلو.

وتسجل العقار محكوما بوقفيته في كل منهما كما تسجل وقفا على الطائفة في محكمة شرعية صور[٦] أما بقية القطعة فقد تيسر لنا بعون الله تعالى إنقاذها يوم ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩٣٥م إذ جرت المساحة العراقية فسجلتها لجنة المساحة بحدودها وقفا على الطائفة الشيعية تحت توليتي كما تراه في محضرها رقم ٩٤٣ وهذا ما أقام المعارضين وأقعدهم يجلبون بخيلهم ورجلهم[٧] فإذا أنا وهم على حد قول القائل:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

وكانت محاكمات استمرت أكثر من سنتين وبعدها جاء الحق وزهق الباطل والحمد لله أظفرنا عز سلطانه على كل مانع وكسر بين أيدينا كل حاجز وروض الصعاب وذلل العقاب فوضعنا النواة ونبتت على بركة الله باسقة نضرة ولئن نبت النبات الطيب في الربيع فإن الله تعالى أنبت نواتنا العباقة المضواعة آية في الخريف، فإذا هي تتأرج بالأزهار النفاحة العطرة في أول تشرين الأول سنة ١٩٣٨م وفتحنا أبوابها معهدا علميا أسميناه (المدرسة الجعفرية) رمزا للعلم والدين ووسام شرف خالد.

فجاءت كما نحن مما كنا نأمل من خدمة العلم وترشيح المبادئ الإسلامية الإمامية والحمد لله على التوفيق.

تبرعت يومئذ هذه المدرسة بالتربية والعليم مجانا لكل من خضع لقانونها من فقير أو غني وساعدت الفقير بلوازمه المدرسية قربة إلى الله تعالى وما عند الله خير للأبرار، وهيمن عليها مدير قدير معه ثلة من الأساتذة المهرة يسلكون في تربية الناشئة اسهل الطرق الحديثة فإذا التلامذة- وهم على الدوام يربون على الثلاثمائة- يرتشفون معسول المعارف والأخلاق ناهلة من نمير الدين والآداب وهذا ما كنت من أمد بعيد أتوخاه.

(١) ورقمه ١٢١ حيث كان قبل المساحة أما بعدها فقد مسحناه وقفا على الطائفة وأخذنا عنه سندا بوثيقتين من الدوائر العقارية رقم ٩٤٢.

(٢) أي قطعة الأرض الرشادية التي كنا أسسنا فيها الجامع على هندسة جامع الجزار في عكا.

(٣) وقد يسر الله لنا ذلك في ما بعد.

(٤) وقد انتهت المحاكمة فيها بالحكم لنا يوم الجمعة ٢٦ حزيران سنة ١٩٣٦.

(٥) وقد انتهت المحاكمة بالحكم لنا فيها يوم ٢٦ نيسان ١٩٣٩م.

(٦) وذلك يوم ١٢ كانون الثاني سنة ١٩٣٢ فليراجع عند الاقتضاء سجل الأوقاف لا سجل المحاكمات.

(٧) لكن رئيس لجنة المساحة وهو الخواجة جورج شمعون كان من أولي القوة والبأس الشديد وكان له مع الحكومات مكانة الصديق الناصح فكانت لا تنقض ما يبرم ولا تبرم ما ينقض.

ناحيتها العمرانية:

على قارعة طريق الداخل إلى صور والخارج منها تجثم المدرسة الجعفرية في أجمل المواقع المرتفعة[١] جثوم المعقل المنيع في بناء محكم كبناء الحصون قوة، وجمال كجمال القصور نضارة.

تقوم هناك رفيعة الهام شامخة العرنين بعيدة النظر واسعة الأجواء تتمتع بهذا الانطلاق الساحر في منظر سابح فوق الخضم من جنوبها وشمالها سارح بين قمم الجبال العاملية وبطون أوديتها وفوق أديم السهول الساحلية الجميلة هناك تقوم مدرسة الإمام جعفر الصادق عليه السلام على أحدث طرز من الهندسة مؤلفة في الوقت الحاضر من ثماني عشرة غرفة صحية واسعة وفسحة بينها تزيدها فراهة ونضارة ولابد لنا من إنشاء غرف أخرى بمعونة الله تعالى تسع المزدحمين على أبوابها وما توفيقي إلا بالله وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

مسجدها:

أنشأنا في الجناح الشرقي من المخازن الستة وإيوانها مسجدا للمدرسة على قارعة الطريق للداخل إلى صور والخارج منها واسع الفناء غزير الماء محكم البناء تام الأدوات والمرافق ينادي التلامذة والأساتذة والمارة وأهل الحارة: حي على الصلاة حي على الفلاح، حي على خير العمل[٢] وجعل سطحه معدا لناء سبع غرف للمدرسة في جناحها الشرقي[٣].

ترضي رغبتنا في راحة الطلاب وتقدم المشروع إلى أوج الكمال المدرسي بمعونة الله تعالى.

ونحن نأمل بتوفيق الله عز وجل أن تظل سائرة على سنن النجاح المطرد إلى جامعة لأنواع الثقافات العالية من العلوم الإسلامية وغيرها على نحو تشد إليه الرحال لذلك نحرص أن تكون أرحب المدارس صدرا ولا يزال عندنا متسع للبناء والعمران جنوبي هذه المؤسسة وقفا للطائفة المسلمة الإمامية تحت توليتنا استخلصناه بعد تلك المحاكمات الطويلة الوبيلة التي أشرنا فيما سبق إليها، والحمد لله الذي نصر عبده وأنجز وعده[٤] ولا يزال عندنا متسع من الطموح إلى التشييد والتعمير سعيا وراء غايتنا المثلى في خدمة يتامى آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

ناديها الجعفري:

أنشأنا في الطبقة العليا من المؤسسة غربي المدرسة صرحا فخما في طول اثنين وعشرين مترا ونصف المتر وعرض ١٥ مترا ونصف المتر ذا نوافذ على البر والبحر على أحدث طرز عددها

---

(١) فوق المخازن الستة وإيوانها الآنفة الذكر.

(٢) تبرع بنفقاته معمورا مقصورا منجورا الحاج أسعد مصطفى أسعد أجزل الله ثوابه.

(٣) وقد بنت والحمد لله.

(٤) إذ قال في محكم كتابه: (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) إنا لننصر رسلنا الذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.

إحدى وعشرون نافذة أسميناه (نادي الإمام جعفر الصادق عليه السلام)[١] فكان مثابة لأهل عاملة عند اجتماعهم أيام المواسم الدينية لأداء المراسم الشرعية وأيام أفراحهم وأتراحهم وعند إقامة حفلاتهم لمهماتهم وسائر شؤونهم ولاسيما يوم عاشوراء ويوم مولد سيد الأنبياء ويوم الغدير حيث تحتشد الجماهير وقد عاد على الطائفة بنفع جزيل ورجع كثير والحمد لله.

خدمة المساجد وأهل العلم:

يسر الله لنا هذه الخدمة وسهل لنا لنا سبلها فوفقنا وله الحمد والنعمة إلى تأسيس مسجدين في صور[٢] وعدة مساجد في قرى متعددة من أعمالها أحدها في البرج الشمالي[٣] وآخر في الخلوسية وثالث في أرزون ورابع في صريفا وخامس في دير كيفا.

وهناك جوامع كانت خرابا فأمدنا الله تعالى بتوفيقه إلى تشييده على ما يلائم الوضع الحاضر وتوسيعها بإضافة ما حولها إليها فمن ذلك جامع شحور وجامعان في طيرفلسية وجامع قلوية والجامع الكبير في قانا.

وأجمعت بعناية الله تعالى وحسن توفيقه على خدمة أهل العلم بكل ما يصل إليه وسعي من تنشيطهم وتأييدهم دائب السعي في معونتهم مؤثرا لهم على نفسي بالحقوق المنطبقة علي دونهم في حال احتياجي إليها ولاسيما عند تجهيزهم إلى مهجرهم العلمي النجف الأشرف وعند رجوعهم إلى أوطانهم وكثيراً ما كنت أجعل لهم وهم في النجف الأشرف رواتب على ذويهم وأهل قراهم أجبيها لهم عند استحقاقها بنفسي وذلك من سوابغ ما أنعم الله به علي ولهو أرجى ما أرجوه من عملي وأعده ذخرا ليوم فاقتي وأما بنعمة ربك فحدث.

في المدينة الطيبة

تشرفنا بأعتاب النبي وآله في دار هجرته ومحل نصرته عليه الصلاة والسلام وكنت بخدمة سيدتي الوالدة قدس الله نفسها وطهر رمسها في جماعة من أعيان بلادنا العاملية فصمنا ثمة معظم شهر رمضان المبارك سنة ١٣٢٨هـ وكان السلطان عبد الحميد وصل بين الشام والمدينة بالخط الحديد فأقلنا قطاره فأوردنا المدينة الطيبة بعد خروجنا من الشام بليلتين وثلاثة أيام.

فنزلنا دارا رحبة من دور إخواننا المؤمنين (النخاولة) فاجتمعوا إلينا فرحين مبتهجين بنا وكنا سعداء بخدمتهم فيما يعود عليهم بالنفع والحمد لله على التوفيق لذلك.

وزارنا الأميران الشريفان شحاذ وناصر الحسينيان الإماميان في جماعة من مؤمني العوالي ولم يدخرا وسعا من العناية بكل ما يعود إلى راحتنا واحترامنا وكان الأميران يومئذ من أهل النفوذ والزعامة ثم كانا فيما بعد من مقوية سلطان الملك حسين وقواد الثورة العربية على عهده، وقد ألقى الحسين إلى شحاذ حكم المدينة ولناصر جهاد وجهود مشكوران مأثوران.

---

(١) تبرع بنفقاته معمورا، مقصورا منجورا الحاج حسن محمود الرز شكر الله سعيه.

(٢) وقد بينا ذلك فيما سبق.

(٣) تبرع بنفقاته الحاج حسن محمود الرز والحاج درويش خياط معمورا منجورا مفروشا فجزاهما الله خير جزاء المحسنين.

وكنا عزمنا على الاعتكاف في المسجد المقدس النبوي لكن الأميرين صرفانا عن ذلك احتياطاً علينا، وكان السيد عمران الحسيني الحبوبي النجفي الشهم الكريم ممن أبلى في أسباب راحتنا ونعم الهاشمي هو كان ذا مكانة مرموقة بأخلاقه الحسنة وله مواقف في قضاء الحاجات والسعي في المهمات الحجاج والزوار محمودة.

وكان رجوعنا من هذه الزيارة قبيل عيد الفطر من تلك السنة والله المسؤول أن يوفقنا في كل عام لحجج بيته الحرام والتشرف بأعتاب نبيه وآل نبيه عليه وعليهم الصلاة والسلام.

في مصر

كانت مصر وما تزال منارة من منارات العلم في الشرق العربي والدنيا الإسلامية يؤمها رواد المعرفة ومنتجعوا الثقافة من مختلف الأقطار وقد كانت تكافئ النجف الأشرف بأزهرها الشريف وتجاريه في خدماته الإسلامية وحراسته للعلوم العربية وقد أم الأزهر فيما أعلم كثير من أعلامنا توسعا في العرفان والإحاطة وتزيدا في المعلومات والاطلاع وكنت أحب فيما أحبّ أن أزور مصر وأقف على أعلامها لآخذ العلم عنهم ولأبلو ما يبلغني عن الجامع الأزهر ذلك المعهد الجليل، وظلت هذه الأمنية كامنة في نفسي حتى حفزها خالي المرحوم السيد محمد حسين في أواخر سنة ١٣٢٩هـ حين زارنا في عاملة فوجدتني وإياه كما ذكرناه في ترجمته نمخر عباب البحر في باخرة ألقت مراسيها في بور سعيد ثم حملنا القطار منها إلى القاهرة.

وكان لهذه الزيارة أثر محمود في نفسي وفي حياتي ذلك أني توخيت أن أتغلغل في الحياة العلمية وأستبطن دخائل المجتمعات الأدبية بالتحدث إلى العلماء والسماع منهم وبتبادل الزيارات بيني وبينه وبالمناظرة في أهم المسائل العلمية التي كانت مدار البحث ومحك الفضيلة.

وقد بدأت هذه الجولة بالحضور في دورة الشيخ الأزهر يومئذ الشيخ سليم البشري المالكي رحمه الله تعالى، وكان يشرف على طلابه من منبره وهو منطلق في درسه انطلاقا يلحظ فيه توفره وضلاعته فيما هو فيه، وكان يلقي دروسا في مسند الإمام الشافعي فكان يعرض أول ما يعرض للسند فيترجم رجال سلسلته باختصار، فإذا انتهى إلى الحديث نفسه فصل الكلام حوله بإفاضته فوقف إلى لغته وقفة أدبية ثم خطا إلى مورده ومفاده فإن كان في سبيل حكم من الأحكام ذكر ذلك، ولا يفوته ذكر الأصول العملية والقواعد العلمية عند الاقتضاء كما لم يكن يفوته التعرض لأقوال الأئمة في المسائل الخلافية، ولا تفوته مدارك الخلاف فإذا كان الحديث معارضا جمع بينهما فيما يمكن فيه ذلك أو رجح أحدهما صادقا بوجه الترجيح.

حضرت درسه الأول مرة وهو يسترسل فيه على هذا النحو وعرض لي أثناء الدرس ما يوجب

المناقشة فناقشته، ثم علمت بعدئذ أن المناقشة وقت المحاضرة ليست من الدراسة الأزهرية فكنت بعدها أفضي بعد الدرس بما عندي من المسائل الجديرة بالبحث والمذاكرة.

وقد كانت مناقشتي الأولى في كل حال سببا في اتصال المودة بيني وبينه وسبيلا إلى الاحترام المتبادل، ثم طالت بيننا وتشاجنت الأحاديث وتشعب البحث بما سجلناه في كتابنا (المراجعات) ولو لم يكن من آثار هذه الزيارة إلا هذا الكتاب لكانت جديرة بأن تكون خالدة الأثر في حياتي على الأقل.

ولعل الكتاب يصور بعض الأجزاء العلمية التي تفيأناها يومئذ في آفاقها منطلقين من القيود الكثيرة التي كانت توثق الأفكار آنذاك برجعيات يضيق صدرها حتى بالمناقشة البريئة والتفكير الصحيح ومهما يكن من أمر فقد نعمنا بمصر في خدمة هذا الشيخ واتصلنا بغيره من أعلام مصر المبرزين إذ زارونا وزرناهم أخص منهم العلامتين الشيخ محمد السملوطي والشيخ محمد بخيت، وقد نجمت هذه الاجتماعات الكريمة عن فوائد جمة أقلها الاتصال الفكري بين مدرستي النجف والأزهر والتعارف بين خريجي هذه وخريجي تلك على مدى ما في كل منهما من أسباب التفكير وطرق الدراسة ووفرة المحصول.

ودع عنك ما لهذا الاتصال من النتائج الحسنة التي تعود على الوحدة بأعم الفوائد وأجداها.

ولكن زيارتي كانت زيارة فردية هي منقطعة الأول والآخر وكذلك زيارتي من زار مصر غيري لذلك كانت فوائدها وقتية ولو أن الزيارات تستمر متبادلة بين أعلام البلدين لكان لها أحسن الأثر في رفع كثير من غشاوات البعد ولاتصلت إذن حلقات الأمة متفاهمة متحابة تتساقى كؤوس الصفاء والولاء.

ولعل الوعي الاجتماعي الجديد يقرب خطوات هذه الاجتماعات بشكل من الأشكال الرسمية لندنو بها من الواقع الحبيب.

وعلى كل فقد غادرت مصر وأنا أحن إليها وأتزيد من الليث فيها ولم أغادرها قبل أن يتحفني أعلامها الثلاثة: البشري وبخيت و السملوطي ، بإجازات مفصلة عامة عن مشائخهم أجمع بطرقهم كلها المتصلة بأرباب جميع الكتب والمصنفات من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم في جميع العلوم عقلية ونقلية ولاسيما الصحاح الستة وموطأ مالك ومسند أحمد ومستدرك الحاكم وسائر المسانيد وكتب التفسير والكلام والفقه وبقية العلوم الإسلامية مطلقا.

وممن أنعمنا بخدمته في مصر وتبادلنا معه الزيارات وكانت بيننا وبينهم محاضرات ومناظرات في مسائل فقهية وكلامية دلت على غزارة فضله ورسوخ قدمه في العلم شيخنا الشيخ محمد عبد الحي بن الشيخ عبد الكريم الكتاني الإدريسي الفاسي، وقد أجازني أيضا إجازة عامة وسعت طرقي في الرواية والحديث وأطردت المراسلة بعد العودة إلى البلاد بيني وبين شيخنا البشري زمنا ثم طغت عليها الشواغل وكوارث الحرب العالمية الأولى.

وكان رجوعنا من مصر في جمادى الأولى سنة ١٣٣٠ هـ[١] وقد حملني الحنين إلى مصر على زيارتها مرة أخرى عرضنا لها فيما تحدثنا عن نهضتنا سنة ١٣٣٢هـ[٢].

في بيت الله الحرام

كنا إذ تشرفنا بالمدينة الطيبة سنة ١٣٢٨هـ نظن أن نوفق للحج، لكن الأحداث المختبئة في ضمير الغيب أخرت ذلك إلى سنة ١٣٤٠هـ، وفيها سهل الله لنا أسبابه والحمد لله على ذلك.

وحين أزمعنا وافتنا الباخرة (بركشير) إلى مرفأ صور جاء بها مستأجرها راشد بك عسيران وقد أعد لنا المحل الأول منها ذهابا وإيابا مجانا فكنت فيه ومعي ابن عمي السيد علي وقد أقلع بها ربانها يوم السبت الثاني عشر من ذي القعدة سنة ١٣٤٠ ثامن تموز سنة ١٩٢٨م وفيها من حجاج العامليين تربوا على الثلاثماية وآخرون من غيرهم وقد أحرمنا بالنذر بعد السويس وجددنا نية الإحرام عند محاذاة (الجحفة) وجددناها من كل من جدة وحدة احتياطا.

وكنا في تلك الباخرة كما نكون ونحن حاضرون نقيم الفرائض الخمس جماعة على ظهرها فإذا فرغنا من ذلك فرغنا إلى الحجاج نتفقدهم فأجول بين أماكنهم المختلفة من الباخرة بإسعافات صحية لمن يحتاج إليها ممن أخذهم دوار البحر أو أضرهم اختلاط الأنفاس وتكأدهم ضيق المكان وكنا نرفع من هؤلاء إلى السطح ممن يحتاج منهم إلى الهواء الطلق حتى امتلأت باحة الدرجة الأولى أمام غرفتنا وضاق بهم الربان ذرعا غير أنه لم يكن في وسعه المعارضة.

وكنا نلقي على الحجاج دروسا في مناسك الحج وما إليها من حكم وأسرار.

في جدة

كنا كذلك حتى انتهينا إلى جدة، وما إن نزلنا منزلنا الرحب حتى زارنا رئيس حكومتها القائمقام الشيخ عبد الله زينل في ثلة من الأجلاء فيهم رئيس البلدية وناظر الجمرك فرحبوا بنا واختلف إلينا كل من الشريف طه ومحمد ناصيف وكيل الإمارة في جدة والأديب قسطنطين يني اللبناني يلتمسون أن نكلفهم بخدمة فقابلنا التماسهم بالشكر.

وفي اليوم الثاني عاد إلينا القائمقام زائرا ومرحبا ومهنئا باسم الملك وقد حمل إلينا عنه من العواطف ما كنا نحرزه بشيخ الأبطح ومليك الهاشميين في هذا العصر.

ثم جاءنا أحد قواد الجيش موفدا من الملك ليكون في ركابنا إلى أم القرى فكان معنا من جدة على حدة ومنها إلى مكة أعزها الله وأنزلنا بستانا للملك في حدة ملتف الأشجار وقانا بوارف ظلاله وسمين أفيائه وتسلسل مائه المنساب في جداوله ما كنا نحذره من ذلك الجو القائظ العنيف بسموه ونزل الحجاج يومئذ في البحرة أو البحيرة وهي رملة واسعة غربي حدة فيها أكواخ قش جعلت محطة بين جدة ومكة يمكث الحجاج فيها سحابة النهار تصهرهم الشمس على

(١) الموافق شهر أيار سنة ١٩١٢م.

(٢) الموافق سنة ١٩٢٠ م.

غير ماء إلا الأقل وقد مات فيها من شدة الحر والعطش نساء ورجال كثيرون وكان العنت فيها عاما فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا ولو شاء لفعل.

في مكة

أقبلنا على مهبط الوحي فأقبلت علينا منه معالم التاريخ تتواكب في ذلك الأفق الكريم وتنبعث فيه أرواح السماء التي كانت تتنزل على سيد البشر في تلك الشعاب الرفيعة من مهد الرسالة الغراء ومصدر النبوة الناهد بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم في زحف كزحف النور على تجاليد الظلام وقطعه الدوامس.

ما أكرم تلك الذكريات المتألفة في مدارج سيد النبيين من ثرى مكة، وكل شيء في مكة عليه من سيد النبيين وخاتم المرسلين آثار تفتح للذهن وجوها للتفكير وترسم صورا للأذكار تشرئب من هالاتها النورانية رؤوس وتتلألأ ثغور تأخذ بالأبصار والأعنة وتنقل النفوس من دنيانا الهينة هذه إلى دنيوات الفتح والجلال والقدس يوم كانت مكة تتدفق برباها وشعابها في أطراف الجزيرة ثم تتسع وتمتد فإذ هي نطاق يتجاوز هذه الرقعة من الصحراء إلى عالم رحب أرحب من الفكر وأبعد من تناول الطموح وإذا هذا النطاق يخرج مكة من معناها الجغرافي المحدود إلى معناها العلوي الذي لا يحد.

فلا تجد الدنيا البعيدة مهربا منها وهي تمتد سريعة خفيفة لتعقد طرفيها المطلقين وراء والأهل المسكون من هذه القرى.

تنشئ الشرائع والحضارات وتظفر بالنقطة الوسطى من عالم التمدن فتمتد منها طرق وتبتدئ منها الخطوط إلى حيث تشاء من أجزاء هذا العالم وعواصمه وتكون نقطة المبدأ في مقاييس القرب والبعد، بعد أن كانت تتنكب الطريق على المناهل والحضارات نائية في تلك الشعاب القاحلة ظامئة لا يمر بها القياس العالمي ولا هي منه في شيء.

هذه مكة يتموج في جوها صوت الرسالة فتسبح هي منه في لجة طهرت طبيعتها من أوضارها الطارئة وجلت جوهرها المدخر من سداه المركوم ثم تسبح معها يثرب ثم يتجرد الحجاز فينضو عنه ثيابه الخلقة المرذولة بين يدي هذه اللجة الهاجمة ثم تتلاصق المدن والأقطار فلا تظل مدينة مشت حول أسوارها خيول الإسلام إلا عادت جزءا من أجزاء مكة تخوض معها في هذه اللجنة المشعشعة المباركة رعى الله مكة وحماها.

لقد استأثر بي تاريخها ساعات فحملني على أجنحته ومضى يخفق بي في أجواء وددت أني لم أعد منها إلى هذا الجو وتمنيت أن أظل على تلك الأجنحة أطوف بها في مهابط الوحي على مهل وأسعى في طلول الأمجاد وعلى آثار محمد وعلي والميامين من آل النبي وأصحابه وأحيا منهم حياة روح لا تفاجئها هذه المنغصات من أحداث الزمن التي عادت بمكة إلى عهد تقلص فيه نطاقها.

وها أنا أنزل عن أجنحة التاريخ في خشوع يشترك بإنشائه في نفسي جلال الذكرى وقدس المكان فاهبط في دار من شعب عامر لا تبعد بنا عن أطياف الجادة ولا تتوارى عن كبرياء التاريخ.

ولابد لنا ونحن من أبناء الحياة الحاضرة كأن نتجرد من التاريخ لنعود تأريخا حين تستقبل منا الأجيال القادمة ما استقبلناه من الأجيال الماضية.

وها نحن في مرحلة توثب إلى أن يكون لها شأن تستوحيه من شأن مكة.

وللعرب في كل مكان ولاسيما في مكة نزوع إن اختلفت تفاصيله فإن مجمله متفق على الوثوب إلى التاريخ من حاضرهم الهين، وكان للملك حسين قبل هذه السنة مساع خالدة عرفها له التاريخ وسجلها نواة لنهضته فإن أصحاب العرب بعدها حظاً من الحظوظ فإنما يكون ذلك ثمرة لجهاده وصدى لصوته.

وقد كان لموقفنا في النهضة العربية العاملية أثر في نفسه دعاه إلى أن يحيط حجنا بكثير من أسباب الرعاية وحسن الوفادة.

وكان احترامه لنا ذا مظاهر مختلفة بعضها شخصي وبعضها نوعي، فمن الشخصي أنه رحمه الله تعالى أمر بوضع (بروتوكول) لاستقبالنا منذ دخلنا الحجاز حتى خرجنا منها فكان الاستقبال لنا من القائمقام والقائد في جدة مستهل هذا المنهج الملكي الكريم، ثم لما تشرفنا بمكة العظيمة زارنا باسم جلالته وزير الخارجية وقاضي القضاة في جماعة من الحاشية الملكية.

ثم أطردت زيارات وزير الخارجية الشيخ فؤاد الخطيب بأمر جلالته في كل غدوة وراح عناية منه بنا ما دمنا نتفيأ ظلال ملكه الذي كنا وكان المخلصون من أحرار العرب نتمنى ويتمنون أن يمتد فيشمل الجزيرة كلها.

ثم كان من الخطة التي أمر بوضعها أن يلازمنا رئيس الشركة فيكون في حاجتنا عند اللزوم، كما أن الخطة شملت سدنة البيت وخدام الحرم فكنا حين نقبل يجتمع منهم نفر بين أيدينا يمهدون الطريق ويفرقون الزحام ليسهلوا علينا الطواف والقياد بأعمالنا العبادية من واجبات و مستحبات.

ووراء هذا المنهج الرتيب وجه إلينا دعوات عديدة وكانت لنا مع جلالته اجتماعا خاصة في بيته وأخرى عامة حمدنا له فيها خلقه الرفيع وحفاوته البالغة.

وكانت من عادته أن يغسل البيت الحرام بنفسه في الموسم من كل سنة وقد آثر في موسمنا أن نشاركه في هذا الشرف الرفيع ففعلنا ذلك ودلني على كل من الملتزم ومحل ولادة أمير المؤمنين وصلى في كل منهما ركعتين وصلينا في كل منهما ركعتين مبتهلين ثمة إلى الله تعالى بما تيسر من الدعاء والحمد لله على التوفيق.

واحتفل بنا في مأدبة عامة اقامها على شرفنا الثكنة العسكرية دعا إليها وجوه الحجاج من سائر الأقطار الإسلامية وكان قد دعانا قبل ذلك مرتين إلى مأدبة خاصة بنا في بيته، وأمر أن

يعرض الجيش عرضا عاما تكريما لنا فعرض في صحراء (جرول) أمام الثكنة العسكرية وكنت إلى جنب جلالته خلال الاستعراض أتشوف إلى المعدات والأسلحة وراء ذلك الجيش الجرار الذي لم تجر الأقدار حسب ما أراد وأراد له ملكيه المنقذ ألا فيلخز الله وجوه السوء من ذوي الخيانة والخداع، وليخز الله سياسة لا يسرها الصدق والإخلاص والصلابة في الحق.

وعلى كل حال فهذه خلاصة سريعة للحفاوة الشخصية التي لقيناها من جلالة الحسين بن علي في حجنا.

وأما المظهر النوعي في حفاوته فيعرف وصفه من كان في الموسم تلك السنة من سائر الحجاج وقد كان الشيعة كلهم ذوي احترام ملحوظ على نحو لم يعهدوه من قبل تلك السنة ولا بعدها وكان من هذا الاحترام أنه لم يعلن بثبوت الهلال حتى ثبت لدينا بشهادة التواتر من أصحابنا.

ومنه أننا كنا نصلي الفرائض الخمس جماعة في المسجد الحرام وفي مسجد الخيف وفي مسجد جدة في جماعة لم يعهد ثمة نظيرها شيعة في تاريخهم.

وكنا نعمل في مواقفنا كلها عمرة وحجاً حسب ما يقتضيه مذهب أهل البيت في غير حرج ولا ضيق وكنا منزلنا في شعب عامر وفي بيت المطنب المضروب على عرفات ومنى مأوى لهذه الجموع الغفيرة يختلفون إليه ويريحون به يأخذون منه ما هو محل ابتلائهم من الأحكام الشرعية ويستمعون إلى قراءة التعزية وأحاديث الوعظ والإرشاد كأنهم في حواضرهم من عاملة والعراق وإيران وأفغان والهند والزنجبار.

وإني لأحمد الله تعالى على ما هيأ لنا في تلك المواقف المحمودة التي سجلت للأمة مظهرا من مظاهرها الكريمة في حديث تحفظه الجماهير الغفيرة من حجاج ذلك العام وتتناقله حتى الآن، ولنا من الذكريات العلمية في ذلك الموسم مناظرات جديرة بالتسجيل على التفصيل لولا ضيق المجال.

أولاها في الثكنة العسكرية ليلة الدعوة العامة الآنفة الذكر كانت بعد الصلاة وتناول العشاء وقد انتظم سامر حافل بالخاصة فذهبنا نذير الأحاديث ونتداول الكلام حتى انتهى المطاف إلى إسلام أبي طالب.

فكنا في هذا الموضوع في معسكرين وكنت أنا في أحدهما وكان مفتي (برصة) والشيخ عبد القادر شيخ الأبطح وبيضة البلد واضحة مجدولة، ما أنسى أن الملك حسين كان يتهلل لها أنسا وطربا.

وثانيها في مسجد الخيف من منى كانت بيني وبين أحد شيوخ النواصب إذ أنكر عليَّ الإمامة وأنا شيعي في مسجد الخيف فأجبته أولا في هوادة ولين إيثارا للحكمة وعملا بآداب المناظرة النزيهة ولكنه اضطرني بجهله وشراسته إلى رده منكمشا على نفسه مذموما مدحورا.

انتهى بحمده تعالى الجزء الثاني من كتاب معالم الشام وأعلامها ويليه الجزء الثالث (العددان ٨٧ - ٨٨) من موسوعة الموسم.